تصطفل ميريل ستريب

رشيد الضعيف

دار الساقي

تصطفل
ميريل ستريب

تصميم الغلاف: سحر مغنية

رشيد الضعيف

تصطفل ميريل ستريب



ISBN 978- 1- 85516- 968- 5

الطبعة الأولى، رياض الريس للكتب والنشر، 2001
الطبعة الثالثة، دار الساقي، 2013

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 2033 - 6114

هاتف: 866442 -1 -961+، فاكس: 866443 -1 -961+

e- mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

لم أرَ الرئيس الأميركيّ جورج بوش يعلن على شاشة تلفزيوني الخاص، ولادةَ النظام الكونيّ الجديد، بل رأيته يعلن ذلك على شاشة تلفزيون أهل زوجتي، حيث كنّا نسهر كلّ ليلة تقريباً بعد زواجنا.

لم يكن عندنا تلفزيون في المرحلة الأولى من زواجنا لأننا فضّلنا شراء الضروريّ أوّلاً؛ غرفة النوم قبل كلّ شيء، والغاز والبرّاد، والصالون والبرادي لأن الشقة التي استأجرناها كانت بلا "أباجور"، وكانت معرّضة كثيراً للشمس والضوء وعيون الجيران خصوصاً على عروسين.

وكان أهل زوجتي مشتركين بالكابل، ويلتقطون حوالى ثمانين محطّة عالميّة وعربيّة ومحليّة، تَعرض غالبيتها على مدى الأربع والعشرين ساعة يومياً، ما لا يمكن أن يتصوّره عقل من برامج وأفلام شديدة الاختلاف في كلّ شيء، في المواضيع والأشكال والألوان واللغات،

ولكن بشكل خاص في التقاليد والأخلاق، بحيث إنّ المشترك كان ينتقل بلحظة واحدة من القرون الوسطى، إلى القرون التي لم تجئ بعد، ومن أمكنة العبادة إلى البارات والعلب الليلية.

والـ CNN طبعاً، حيث كنّا نتابع المشاهد التي كانت تبثّها مباشرةً عن حرب الخليج الثانية، وقصف العراق لحظة بلحظة.

والحقيقة أنني لم أنتبه في ذلك المساء إلى ما كان يقوله الرئيس الأميركيّ بالضبط، ولم أنتبه إلى أنه استعمل تعبير "النظام الكوني الجديد"، لأنّني كنت بطبعي لا أستطيع، وأنا أمام التلفزيون، أن أسمع وأن أرى في الوقت نفسه، فإمّا أن أسمع وإمّا أن أرى. وكانت المصيبة هيّنةً عندما يكون المتكلّم وحده يملأ برأسه وبعض صدره الشاشة، لكنها كانت تكبر كثيراً عندما تُعرض أحداث ويكون المعلّق عليها مستتراً غير باد، كما في نشرات الأخبار مثلاً، فيضيع عليّ كلّ شيء، كلّ شيء تماماً، فلا أعود أسمع ما يقوله المعلّق ولا أعود أرى ما يُعرضُ أمامي، فأصبح كما وصفتني زوجتي كأني في سيّارة تُسرع إذا ضغطتَ على فراملها، فأُضطرّ إلى استيضاح مَنْ حولي عما جرى، تماماً كما كان يفعل والدي، الذي كان يُلصِق الراديو بأذنه، ويمنعنا من الكلام حتى يستطيع التركيز على ما يسمعه، وبعد أن ينتهي الخبر يرفع الراديو عن أذنه ويسألنا "ماذا قال؟" ولم يكن يشكو من شيء في سمعه، فنفلت بالضحك بلا حرَج ولا مراعاة، كما يضحك صبية الأحياء في الكتب المدرسيّة البائدة، وكان هو يبتسم ابتسامةً خفيّةً. كنت في الماضي أعتقد أن هذه المشكلة تخصّ الجيل الذي قبلي، الذي لم يألف بعدُ هذه

الأجهزة، ولكن ما يصحّ على هذا الجيل، يصحّ عليّ، فأنا أيضاً لم أتعوّد هذه الأجهزة بعد.

لا أدري ما الذي جعل والدة زوجتي تقول لي: "هيئتك بتحبّ التلفزيون يا رشّودا!" فهل كنت بالفعل أبدو محبّاً للتلفزيون إلى هذه الدرجة؟ غريب! لأن الأمر لو عاد إليّ وحدي لما كنت جلست كلّ هذا الوقت أمام التلفزيون، كانت زوجتي تجبرني عمليّاً على ذلك. فهل كانت والدة زوجتي تريد أن تبلغني العكس، أي إنني لا أحبّ التلفزيون ولا أنشدّ إليه كما يجب في مثل هذه الحالات المفصليّة، وأنّ هذا خطأ.

والحقيقة أيضاً أنني لم أنتبه إلى ما كان يقوله الرئيس الأميركي جورج بوش، ليس فقط لطبعي بل لأنّ ذهني كان مشغولاً بأمر آخر، فزوجتي كانت ترفض أن تذهب لننام في شقّتنا، وكانت تصرّ على البقاء عند والدتها، في بيت أهلها الذي ما زالت تشعر فيه بالألفة والأمان أكثر من أي مكان آخر، وعندما ألححت عليها قالت لي: اذهب ونَمْ وحدك إذا كنت "هالقد مشتاق للبيت!" وأنا في الحقيقة لم أكُن مشتاقاً إلى البيت إلى هذا الحدّ، بل كنت مشتاقاً إليها هي، ولم أكن أستطيع أن أتمتّع بها إلا في البيت، لأننا عند أهلها لا نأخذ حريتنا كما نأخذها في بيتنا وهذا شيء طبيعيّ، ووالدتها تفيق عند أقلّ حركة، والفراش الذي ننام عليه عندها يُصدر صوتاً كلّما تحرّكنا حراكاً غير عاديّ، فتحتجّ به زوجتي لتشلّ نشاطي.

ولم تكن زوجتي بحاجة إلى أن أوضّح لها كلّ هذا وأن أصرّح به، لأنها كانت تعرف بالتفصيل كلّ ما أبغيه من وراء إلحاحي، ورغم ذلك قلت لها: لست مشتاقاً إلى البيت بل إليكِ فأجابتني:

- "بعدنا كنّا نايمين مع بعضنا!" وقصدتْ بذلك أننا "نمنا" مع بعضنا، عند العصر قبيل مجيئنا عند أهلها. فقلت لها:

- لا أشبع منكِ!

قالت:

- أنا شبعت وزيادة!

يبدو أنها كانت تقصد بهذه القذيفة الأخيرة أشياء خطيرة جدّاً، أردتُ أن أفهم منها وقتها ما شئت، أو ما كان يسمح به الوضع.

لم يكن مزاجها مؤاتياً للجنس عصر ذلك اليوم الذي أشارت إليه، فألححت عليها فأذعنت لكن دون أن تشاركني بل أوصلتني بيدها إلى ما أريد، واشتعلتْ بالغضب والغيظ عندما لاحظتْ أنني ألاحظ بوضوح طريقتها في اتّقاء مائي كأنه الوسخ. كانت طريقتها توحي بأنها تتمتّع بخبرة عالية في الموضوع. وبعد هذه الحادثة، وما سمّته هي "نومة"، تضاعفت حاجتي إليها أضعاف ما كانت قبل، وبدل أن أهدأ اهتجت كما لم أهتج في حياتي، كأنّ هذه الطريقة في الاستمناء، أعادت إليّ مشاعر الحاجة في أيّام الحرمان، قبل الزواج، حيث لا امرأة تحت الطلب ولا مكان آوي إليه إذا ما حضرت امرأة، فكنت ألجأ إلى هذه الطريقة لأعوّض ما لا أستطيع الحصول عليه. وعندما

خرجتْ من غرفة النوم في بيت أهلها لابسة ثياب النوم، ومعلنةً بذلك حسم الموضوع لمصلحة البقاء عند والدتها، كدت آكلها من الرغبة، ورحت ألاحقها بملامستها وضمّها وتقبيلها وبمبادرات أخرى من هذا النوع، بحيث إنني أحرجت والدتها التي، بدل أن تترك لنا المجال لنتصرّف بحريّة، ضاعفت من حضورها معنا، وصارت لا تفارقنا حيث اجتمعنا.

لم تكن كذلك عندما كنت أزور ابنتها قبل الزواج. غريب!

كان يجب أن أعود وحدي ليلتها إلى شقّتي.

لم أنتبه إذن إلى عبارة الرئيس الأميركي جورج بوش تلك الليلة، و لم يخطر على بالي أنه سيكون لها هذه القيمة التاريخيّة. ثمّ قرأت في ما بعد في الصحافة المحلّية اللبنانية، وسمعت من الإذاعات الرسميّة العربيّة، والإذاعات الأجنبيّة الناطقة بالعربيّة وخصوصاً إذاعة لندن، أنه استعمل في خطابه هذا التعبير الذي بات عنوان المرحلة التاريخيّة المقبلة، على امتداد الكوكب كلّه، وأنّ هذه المرحلة مرشّحة أن تدوم عشرات السنين، بل مئات ربما.

لقد شهدتُ لحظة تاريخيّة بدون أن أدري.

وما كان يشغلني أيضاً على ما أذكر وأنا أمام الشاشة، هو عدم ملاءمة صوت الرئيس بوش مع شكله ومنصبه، كنت أتصوّر أنّ ما يصدر من فم الرئيس بوش لم يكن صوتَه بالذات، بل صوت رجل آخر صغير جدّاً، بحجم الكلّة، موضوع في حنجرته، وأنّه، أي الرئيس

بوش، يحرّك شفتيه بشكل يوحي بأنه هو الذي يُصدر هذا الصوت. صوت الرئيس بوش لم يكن يناسب شكله ولا وظيفته ولا مسؤولياته كرئيس دولة عظمى ما زالت محقّقةً نصراً نهائيّاً حاسماً على الاتحاد السوفياتي العظيم، صاحب الجيوش السوفياتية الجبّارة، فسيّد الكون وزعيم الكوكب يجب أن يكون له صوت آخر يناسبه تماماً ويصدر من فمه مباشرة. واللافت أن بيل كلنتون الرئيس الذي تلاه، كان يعاني من مشاكل صريحة في الصوت هو الآخر أيضاً. وفي لحظة من اللحظات أردتُ كسر الصمت الذي حلّ بيننا، أنا وزوجتي، نتيجة الحرَد الذي أبداه كلّ منّا تجاه الآخر، أنا لأنني غُلبت على أمري، وهي لأنها اضطرت إلى أن تجعلني أُغلب على أمري، قلت لها على سبيل السؤال:

- هل يعجبك هذا الصوت؟

فأجابتني على طريقتها المعتادة بالإجابات غير المتوقّعة:

- صوت تلفزيونك أحلى؟

. وأنا لم يكن قصدي أن أنتقد صوت تلفزيون والدتها، الذي كان يشكو من عدم الوضوح بعض الشيء، لكنني كنت أسألها عن رأيها في صوت الرئيس بوش.

يجب أن أشتري تلفزيوناً بلا إبطاء، ويجب أن أكون حاسماً هذه المرّة في قراري، لا أن أوجّل التنفيذ كالعادة، حتى لا يبقى لها حجّة للنوم عند أهلها، وحتى لا يبقى لها حجّة لتقول:

– "ما في شيء بهالبيت!"

بل ذهبتْ مرّة إلى أبعد من ذلك بكثير، ووصفته بأنه كالقبر، وقالت بالحرف الواحد:

– "مثل القبر!"

هذا كلام لا يقال! معها حق ربّما في أن البيت موحش بلا تلفزيون، لكن لا يجوز تشبيهه بالقبر في أيّ حال، فرفعت صوتي في وجهها ونهرتها.

نعم نهرتها!

وقلت لها إنّ هذا كلام لا يصحّ!

– "هذا كلام حرام!"

فخجلتْ ودخلت غرفة نومنا، وأقفلت عليها الباب بالمفتاح ساعة طويلة، وبكت بحيث كنت أسمع بكاءها. وبعد أن هدأت وخرجتْ، اقتربتُ منها وغمرتها واعتذرتُ، فلم تجب بشيء، ولم تُلقِ رأسها على كتفي عربون الرضا والقبول بالاعتذار، لكنني أحسست أنّ اعتذاري كان له وقع عميق في نفسها، وكان هذا الإحساس كافياً بالنسبة إليّ حتى أعفوَ عنها. لكنني حتى بعد هذا العفو لا أرى أيّ مبرر لكلام من هذا النوع، فتشبيه البيت بالقبر أمر يصدم بقوّة، وقد يكون نذير شؤم وإشارة مبكِرة لكارثة ستحلّ، وهذا في الحقيقة ما كان، إلا إذا كنّا لا نعتبر الحَياة والزواج والأطفال في الأرحام من القيم المقدّسة.

كان عليّ أن أشتري تلفزيوناً بلا إبطاء، لا من أجل زوجتي وحسب، بل لأنّ كلّ شيء يفوتني بدونه، فالتاريخ يجري عليه، والجغرافيا تجري عليه، والفلك أيضاً، الفلك ذاته يتعاظم ويمتدّ عليه بأسراره إلى ما لا نهاية. وكم شعرت بالحرمان حين حدث الكسوف العام الماضي، حين ظلّت التلفزيونات جميعها، ومعها كلّ وسائل الإعلام، تدعو الناس إلى عدم الخروج من بيوتهم أثناء حدوث الكسوف، لئلا يحدّقوا في الشمس وهي تختفي وراء القمر فتعمى عيونهم، وبقي الناس فعلاً في بيوتهم يتفرّجون، وهم في كنباتهم، على عملية الكسوف إلاّي، لأني بكلّ بساطة لم يكن عندي تلفزيون، فخرجت أتجوّل في هذه الشوارع الخالية من بيروت، العاجقة أبداً في العادة، وكنت مشدود الأعصاب حاسّاً بالاختناق، جاهزاً للانقضاض على أيّ أحد في أي لحظة، فرأيت من بعيد شاباً يراقب الخارج بحذر شديد، من باب بيته الذي يفتح على الرصيف، فنهرته بقوّة قائلاً له: أَدخِل رأسك! وركضت نحوه أنقضّ عليه (أو أحاكي ذلك) فأدخل رأسه بسرعة وطبش الباب وراءه بقوّة، لكنني تابعت اندفاعي نحو الباب وأنا أصرخ فيه، ثم سمعت والدته تصرخ فيه أيضاً وتقول له بأنه ولد عنيد وشرّير، يعرّض نفسه للخطر، ويعرّض إخوتَه معه أيضاً ويعرّضها هي كذلك، ثم تضربه بشيء أصاب الباب بدل أن يصيبه. ونظرتُ إلى الشمس سريعاً وهي تختفي وراء القمر فبكت عيناي، ثمّ نظرت إليها مرّة ثانية وهي تظهر من الجهة الثانية للقمر، فبكت عيناي أيضاً، وخفتُ أن يصيبهما ضرر وندمت، وكتمت غضباً شديداً على نفسي، وعلى طريقة عيشي وعلى إهمالي لأموري،

فلماذا أنا هكذا إذن، بلا زوجة ولا أولاد أتفرّج معهم في عتمة بيتي على كسوف الشمس في لبنان ومناطق أخرى من العا لم، على شاشة تلفزيوني الخاص! لم يكن عندي شيء أقوله للناس الذين التقيتُهم بعد الكسوف، بينما كانوا هم حائرين في ما يخبّرون! فماذا أقول لهم أنا و لم أشاهد شيئاً، وقد أمضيتُ هذه اللحظة التاريخية – آخر كسوف عظيم في الألفيّة الثانية للميلاد – في شارع تتوتّر أعصابي لاختفاء نور الشمس في منتصف النهار، ولرؤية شوارع بيروت خالية، ونوافذها مغلقة بإحكام، كأنّ غباراً ذريّاً ينتشر فيها رويداً رويداً منذ يوم أمس.

SONY

لم أتردّد في اختيار ماركة الجهاز الذي ذهبت لأشتريه: SONY! قلتُ لصاحب المحلّ، أريده "سوني أصلي،" لأنني أعرف (ليش أنا وين عايش؟) أنّ في السوق "سوني" مصنوعاً من بلدان آسيا الأخرى كتايوان أو ماليزيا وهذا يُباع على أنه سوني أصلي. السوني الأصلي أغلى. وانتبهتُ جيّداً ألاّ يبيعني السوني غير الأصلي على أنه أصلي وبسعر الأصلي. وطلبت منه حُجَجاً فدلّني على مفتاح قال إنه في السوني غير الأصلي يكون موضعه إلى اليمين لا إلى اليسار، ولمّا قلت له أَرِني من فضلك واحداً غير أصلي قال لي إنه لا يُدخل هذه البضاعة إلى محلّه (– ما بفوّت هالبضاعة ع محلّي). وعرض عليّ ماركات كثيرة أخرى، فيليبس وغرونديك وغولدستار وغيرها، لكنني كنت حاسماً: سوني! صحيح أن الماركات الأوروبيّة عموماً والألمانيّة خصوصاً لا بأس بها من حيث الجودة لكنّ الكهرباء تلعب كثيراً عندنا

ولا تثبت على الـ 220 فولت بل تبقى دائماً نازلة طالعة، والسوني مصنوع حتى يناسب هذه الحالات. كان الناس الذين عندهم سوني أثناء الحرب اللبنانيّة ينيرون به البيت حين تجيئهم الكهرباء بقوّة 70 أو 80 فولت لأن "اللمبة" لم تكن تنير شيئاً على كهرباء بهذه القوّة فقط. وما زال وضع الكهرباء أحياناً يذكّر بما كانت عليه أثناء الحرب. ثم إنه في المبدأ، كلّ شيء إلكترونيك لليابانيين! فصيتهم في هذه الصناعات كالمسك، وهم يستحقّون هذا الصيت. والأهم من ذلك كلّه، هو أنّ زوجتي لن تستطيع أن تقول لي على سبيل اللوم: "لماذا لم تشترِ ماركة أفضل من سوني؟" والدليل على صواب ما كنت أتوقّع أنها قالت لي عندما رأته في ما بعد: Sony is the best!

في الليل الذي سبق شرائي التلفزيون، استمنيت وأنا ألتصق بها في الفراش على المكان العاري من جسدها، بهدوء حتى لا تفيق من نومها، ولمّا عدت من الحمّام بعدما اغتسلت كانت صاحية فقالت لي لماذا لم تغفُ بعدُ؟ فأخبرتها أنني كنت أغتسل فقالت من ماذا؟ فقلت لها من ماذا فقالت إيّاك أن تكون وَسَّختني! وتلمّستْ وهي تقول هذا الكلام أماكن من جسدها لتتأكّد.

قلت لها قبل أن أغفو: غداً سيكون عندنا تلفزيون مهما كان ثمنه! ولن أتراجع هذه المرّة ولن أغيّر رأيي، وسأشترك بالكابل فوراً! فقالت: سيكون ذلك أفضل عمل قمت به في حياتك، فالتصقت بها وكانت تدير لي ظهرها، فشدّت مؤخّرتها إليّ عربون امتنان، ثمّ بعد لحظات قالت وكأنها تستدرك: لكن هذا لا يعني أنني لن أنام بعد ذلك عند أهلي.

"مش معقول أدّيش بتحب أمها هالبنت!" قلت ذلك همساً وكأنّي أقوله لنفسي، حتى يبلغها رأيي دون أن تشعر بأنها مضطرّة للردّ عليه.

تحبّ والدتها كثيراً هذه الفتاة، لا أعرف فتاة تحبّ والدتها هذا الحبّ، فما إن تدخل إلى بيت أهلها حتى تقبّل والدها وتنساه، وتنسى وجوده في البيت، ثمّ تلازم والدتها ولا تعود تفارقها لحظة: "ماما! ماما!" طوال الوقت. وأنا تنساني لولا أنّي أنا.

فأنا الذي سأشتري لها غداً تلفزيوناً وسأشترك من أجلها بالكابل، وأنا زوجها بعدما كادت تيأس من الزواج، لا لأنها لم تكن مرغوبة بل لأنها كانت صعبة، ثمّ إنها في الحقيقة ليست آية في الجمال، وربما لا يراها البعض جميلة بل عاديّة جدّاً، وقد شارفت على الثلاثين من عمرها، وكادت تيأس من الزواج لأنها كانت تَبغي أعلى من مستواها، (بتضرب عالعالي)، وأعلى مما تستطيع، كانت تحلم بشخص أفضل مني بالتأكيد (على شو؟) وقبلت بي لأنها يئست من التطلع إلى فوق، ولأني مناسب. تزوّجت بي بعد حساب عقلاني بارد، لكنّ مشاعرها نحوي لا بدّ أنها تنمو بسرعة وتتعمّق. أنا أكبر منها بخمس سنوات هي الفارق المثاليّ بين زوج وزوجة، بالنسبة إلى الزوجة بالطبع، أكثر من ذلك كثير وأقل من ذلك قليل.

أخبرتها منذ فترة، أني التقيت بالصدفة امرأة كانت مغرمة بي، وأنّ هذه المرأة احمرّت واضطربت عندما أخبرتها أنني تزوّجت. لم أخبرها كيف غضبت منّي غضباً لا يوصف، عندما شاهدتها

في المقهى وتحاشيت الكلام معها، وكان ذلك في اليوم التالي على انفرادي بها، منذ سنوات، في شقّة أحد الأصدقاء. لكنني سأخبرها ذلك غداً، بعد أن أكون اشتريت السوني 23 إنش مع طاولته المتحرّكة على دواليب صغيرة مطواعة، Berlioz لكنني لن أخبرها عن السبب الحقيقي الذي منعني من الكلام معها.

أحبّ أن أخبرها هذه الأخبار، حتّى تفهم أنني لم أصل إليها على "الفينيش".

طلبت منها في الصباح أن تبقى عند والدتها، وقلت لها إنني سأتصل بها نحو العصر، بعد أن أفرغ من شؤوني، وبعد أن أكون اشتريت التلفزيون واشتركتُ بالكابل. وقلت لها أيضاً: سنسهر في بيتنا هذه الليلة، وقالت "أوكي".

قالت: "أوْكِيْ."

أنا أقول أيضاً "أوكي" لكنني أقولها "أوكّي" أي أشدّد الكاف ولا ألفظ الواو ساكنةً ولا ألفظ الياء بتاتاً، بينما هي تلفظ الكاف بدون تشديد وتلفظ الواو أيضاً وتسكّن الياء، كما يلفظها الذين يجيدون الإنكليزيّة، وأحبّ ذلك منها. فإنكليزيتها جيّدة بحيث إنها تفهم ما يجري في الأفلام غير المترجمة، لكنّها تحب أن تتعلم الفرنسية وتسألني دائماً عن تعابير كيف تقال بالفرنسية وعن مفردات ومعانيها. ومرّة سألتني عن تعابير جنسيّة كيف تُقال بالفرنسيّة ففوجئت. وسألتني مرّة في لحظة حاسمة في الفراش كيف نقول "هذا!" ودلّتني على ما تريد معرفة اسمه قبل أن يختفي في جسدها، فقلت لها لا بد أن

تكون الكلمة الفرنسيّة هي ذاتها الكلمة الإنكليزية.

شيء جميل أن نتبادل المعارف باستمرار بحيث تنتهي معارفنا يوماً بأن تتساوى، كالأوعية المتصلة.

وسألتني مرّة كيف نقول "عضعِضْني" بالفرنسيّة فقلت لها "عَضَّ" "Mordre" فقالت لا بل "عضعِضني"، "يعني مش إنّو شلّي لحم من جسمي." يعني لا تقضمني بل اجعلني أحسّ جسدي بأسنانك، هذا معنى "عضعضني"، أي آلمني ألماً محبّباً. لم أكن أعرف أن هذه الكلمة تحمل هذا المعنى، كنت أفهمها على أنها تكرار لعملية العضّ فقط. و لم أكن أعرف كيف تقال بالفرنسية بل لم أسمع بمقابلها الفرنسيّ إطلاقاً مع أنني تعلّمت باكراً المفردات التي لها علاقة بالعمليّة الجنسيّة، عندما كنت فتى أعمل حمّالاً في المطار... لا! لا! فأنا لم أعمل إطلاقاً حمّالاً في المطار، فما هذه إلا زلّة لسان.

Lapsus وحسب.

عندما كنت طالباً كان لي زميل يضهر مع مصوّرة صحافية فرنسيّة تكبره بستّ سنوات، لكنّ هذا الفرق لم يكن واضحاً بحيث إننا نحن أصحابهما القريبين كنّا نتعجّب حين يطلعوننا على ذلك. كانت تعرف العربية قليلاً وكانت تطلب منه دائماً أن يعلّمها المفردات العربيّة المتعلقة بالعملية الجنسية، إلى أن اكتشف ما اكتشف. علاقتهما لم تدم أكثر من أسابيع وكادت تنتهي بكارثة. سألتني مرّة كيف نقول بالعربيّة: Remplis-moi قلت لها بالفصحى نقول: "املأني!" وهي الأمر مَنْ ملأ يملأ، قالت: "لا! بل أريدها بالعاميّة،"

قلت عادة نقول "مليني"، والبعض يقول "تليني"، وذلك حسب مستوى المتكلّم الثقافي والاجتماعي وحسب المنطقة التي هو منها، فقالت أليس لها من مرادفات؟ قلت بلى: عبّيني! حشيني! عوّمني! فاشتعل النور في عينيها وهي تسمع هذه المفردات، وأحسست أنها اضطربت اضطراباً أليفاً بالنسبة إليّ لكنه لم يتضح لي ساعتَها كما يجب. ثم اعترفت لي في ما بعد أنها مع شاب في العشرين من عمره، وكنّا نحن، أنا ورفيقي، في الخامسة والعشرين، وكان هذا الشاب لا يجيد الفرنسيّة ولا الإنكليزية، وكان أميّاً لا يكتب العربية ولا يقرأها، وكان يعمل حمّالاً في المطار، ويقيم مع عائلته، والده ووالدته الحامل وإخوته وأخواته الخمس، في شقّة صغيرة مؤلفة من غرفة واحدة كبيرة، ومطبخ وحمّام، وبلكون. البلكون كان أهم شيء في القصّة. والتقت به بالصدّفة وهي تصوّر ذات يوم آثار الحرب على مباني بيروت القريبة من حيث كانت خطوط التماس، عند برج المرّ الشهير بالتحديد، وكان هو يسكن هناك في المنطقة. سألته وقد أضاعت دربها أن يدلّها فحاول دلّها لكنّ هذا تطلّب وقتاً لأنه لم يكن يجيد لغة تفهمها، فكان يستعين بكلمة إنكليزية تعلّمها في المطار، وبكلمة فرنسيّة تعلّمها هناك أيضاً، أو ما زال يذكرها من سنوات المدرسة الرسمية عندما كان صبيّاً صغيراً، أو بكلمة عربيّة تعرفها هي. وكانت هي في هذه الأثناء تشعر بأنها تنشدّ إليه بشكل لا يُردّ، بحيث إنها وبعد دقائق فقط، أحسّت أنها أسيرته، وأنها مستعدة أن تعطيه كلّ شيء شرط أن يسمح لها بالتمتّع بجسده.

كنتُ، وأنا أسمع هذه الاعترافات أتعرّض لصدمات عنيفة، لكنني لم

أبح بهذه المعاناة إلى زوجتي بعدما تذكّرت هذه الحادثة (هل نسيتُها يوماً؟) وأخبرتها إيّاها، عندما طلبت منّي أن أعلّمها مفرداتٍ جنسيّة بالفرنسية.

كنت وأنا أسمع رواية الصديقة الفرنسيّة أتعرّض لصدمات قاسية إذن، لكنني كنت مضطّراً لتأدية دور الصديق الوسيط الناصح الواقف على المسافة ذاتها من الاثنين. وباحت لي أيضاً بأنّ ما كان يسحرها هو علاقته بجسده، Il avait un tel rapport à son corps.. كانت تقول وتردّد مسحورةً سحراً كان يخلخل دماغي، ويقلّب أحشائي. ولم أستطع منع نفسي من سؤالها أين كانت تلتقي به، فليس عندها صديقات تستطيع أن تطلب منهنّ مفتاح شققهنّ، ولا يوجد منهنّ أصلاً في بيروت، فالفتاة تسكن في بيت أهلها أو في بيت زوجها، لا وحدها. كانت تلتقي به عند أهله، كانت تسكن عندهم أحياناً أيّاماً بلياليها.

– رجاءً لا تقل له (أي لصديقي) ذلك، فإنه قادر على القيام بمبادرات عنيفة جدّاً، فقد يسيء إلى نفسه أو إليّ أو إلى هذا الشاب. قلْ له فقط إن كلّ علاقة معرّضة للانتهاء. أقنعه بأن يتركني وشأني. لا أستطيع أن أعيش معه وهو على هذه الحالة من الشكّ الدائم والغيرة.

وسألتها كيف كانت تلتقيه شخصيّاً، مع قدر من الحريّة تسمح لهما ببعض التصرّف، فأجابتني: في بيت أهله. كانت تنفرد به في آخر الليل بعد أن ينام الجميع، والأولاد خصوصاً، على البلكون، في فسحة صغيرة جدّاً لا تبلغ بالتأكيد المتر المربّع، وكانا بالطبع يثيران

التساؤل لكن الوالدة كانت رائعة فكانت تخدمهما على البلكون قبل أن تذهب لتنام، والوالدة هي التي دعتها إلى النوم عندهم في الجهة التي ينام فيها البنات، وكان هو الأول من ناحيتها في الجهة التي ينام فيها الصبيان، لا يفصله عنها إلا ممرّ ضيّق، كانا يحتلاّنه عندما ينام الجميع.

لكنه كان يخاف منها! كان يخاف من أن تكون جاسوسة! وأرادت إقناعه بأنه هو بذاته ما تريد ليس إلاّ، وبأنها ربما كانت مستعدّة أن تكون عبدةً له، أمّا جاسوسة فلا، ثم على من تكون جاسوسة؟ لم يأمن لها، وصار يتهرّب منها مع أنه عندما كان يأخذها فكشيء لا يمكن وصفه. كان يأكلها.

"بصراحة؟ أنا مستعدة لأكون عبدته! هل تصدّق؟"

كنت أسكت عندما تقول ذلك، وأتمنّع عن الجواب.

لقد فجّرت دماغي هذه الفتاة، خربطتني. قذفتُ عدّة مرّات وأنا أتسمّع لحديثها فقط! لم يحدث معي هذا إطلاقاً، و لم أكن أعتقد أنه أمر ممكن الحدوث. وبدون أن أستعمل يدي! لم يحدث هذا معي من قبل و لم يعد يحدث من بعد ولن يحدث بالتأكيد في المستقبل. كم أثارتني أخبارها يا إلهي! و لم يكن في إمكاني أخذها وهي في حالة استعداد فعليّ لأن تكون عبدة هذا الفتى، وكم حسدتُه وتمنّيت أن أكون مكانه، بحيث إنّي ذهبت إلى المطار ليلاً، علّي أقع عليه، وأعتقد أنني استطعت التعرّف إليه، لأنه لم يكن هناك كثير مثل الذي وصفته لي، في سنّ العشرين.

وعندما بلغ الخبر صديقي انتحر! شرب كميّة من الحبوب المنوّمة التي كانت تستعملها والدته، لكنه نجا بأعجوبة بعدما بلغته والدته وهو على آخر رمق. و لم يكن على علم بالتفاصيل ولا بالشخص. لقد علم فقط ما أحبّت أن تُعلمه إيّاه وهو أنها تحبّ غيره.

لم أخبر زوجتي بالتأكيد بالجانب الذي خصّني خصّاً من الخبريّة، لأنني يجب أن أبدو لها دائماً صلباً لا أفقد السيطرة على نفسي، لئلا تنتقدني في ما بعد، كلّما نظرتُ إلى امرأة نظرة لم تعجبها، وتتهمني بالضعف تجاهها. فالمرأة بطبعها تغار كثيراً، أكثر من الرجل بكثير، مع أنّ زوجتي ليست هكذا تماماً، لكنها تبقى في الأخير امرأة كجميع النساء.

ثم إن المرأة لا يطمئن لها بال إلا إذا كان زوجها قد عاد إليها أو عادت إليه. لكن زوجتي ليست كثيرة التذمّر في هذا الموضوع، خصوصاً إذا كانت عند والدتها في بيت أهلها.

زوجتي لم تتذمّر بالطبع ذلك النهار، عندما طلبت منها أن تبقى عند أهلها حتى رجوعي، لأنها ربما هذا ما كانت تنوي عمله. بل هذا بالتأكيد ما كانت تنوي عمله. لا يخطئ إحساسي. كنت أعرف أني أطلب منها أن تفعل ما ستفعله في كلّ حال، طلبتُ منها ذلك أو لم أطلب. لكنّ هذا لم يزعجني إطلاقاً، و لم يقلقني بالتأكيد، لأنّ هذه الأمور أكثر ما تحصل بين زوج وزوجته، "يا ما بتصيرا" وعلى الزوجين أن يتعاملا معها حال حصولها، برويّة وطول بال، لأنه إذا لم يكن هناك سقف للخلافات بين الزوجين، فإن الطلاق يصبح القاعدة

بدل أن يبقى دائماً هو الشواذ، ومن غير الممكن بدون الرويّة وطول البال والتفاهم بين الزوجين، أن تستقرّ الأسرة وتنعم باستقرارها، وإلا أصبحت حالتُنا كحال الغرب، حيث ما إن تنرفز المرأة من زوجها حتى تطبش الباب وراءها، بدون أن تقول له "بخاطرك". الإنسان فعلاً يتعلم بالزواج أشياء كثيرة لا يمكن أن يتعلّمها بدون زواج. الإنسان قبل الزواج شيء وبعد الزواج شيء آخر، هذا ما خبرته أنا بنفسي. الزواج يعلّم المسؤولية، والرجل الذي لا يعرف ما هي المسؤولية، والذي لا يعي أهميتها في الحياة، هو إنسان ناقص.

وبينما كنت أغفو، تلك الليلة التي وعدت فيها زوجتي بشراء التلفزيون وعداً قاطعاً، وكذلك الاشتراك في الكابل، وعدتُ نفسي أنا أيضاً بنهار جميل أربح فيه رضاها بالكامل، لأنها بعد شرائي التلفزيون والاشتراك في الكابل، لن يكون عليها حين تعود إلى البيت، إلا أن تجلس في كنبتها وتضغط على الأزرار، حتى تتمتّع وهي مستغرقة في التفرج على ما شاءت من هذه البرامج والأفلام التي تحبّها. لن يرِد على بالها بعد غد أن تشبّه بيتنا بالقبر (أعوذ بالله!) لأنه سيشعّ بما تريد وسيلعلع بما تهوى. وعدت نفسي بأن تثمر جميع هذه الجهود التي سأبذلها غداً لأنال رضاها، بأن تثمر تخلّياً من قبلها عن هذا التردّد الذي تبديه نحوي، والذي يزداد يوماً عن يوم، والذي يشعرني كلّ يوم أكثر بأن الأشياء تخرج عن سيطرتي، وبأنني كما تصفني هي من وقت لآخر، سيّارة فلتت فراملها في نزلة حادّة. وتأمّلت منها أن تعطيني نفسها في المساء عطاءً بلا حذر، فتجعلني أحسّ أنها بالفعل لي وليس بالكلام أو بالإيحاء أو بالصمت. وحلمت بل تأمّلت أيضاً،

أن يكون هذا التغيّر الذي سيحصل في سلوكها نهائيّاً وحاسماً ولا عودة عنه. كنت أحلم بأن يجيء ذلك اليوم الذي تغرق فيه بالعرق، وهي تتلوّى من لذّة بي، وأن تبتلعني حيثما عضّت بشفتيها منّي، وحيثما امتصّتني لترشف مائي.

أنْ أتآكلَها كما تتآكلني.

وكنت أحلم أن تبذل ذات يوم من ذاتها لتسعدني، وأن يغلو في عينيها كلّ شيء فيّ.

وعَدتُ نفسي إذن بأن يحدث هذا التحوّل في ذلك المساء بالذات. ولكنني قبل أن أبادر إلى شيء، أردت إزالة آثار احتكاك غير ودّي جرى بيننا، في لقائنا الأوّل في مقهى الروضة، فاشتريت عدة قناني بيرة ووضعتها في البرّاد في البيت. لقد أخطأتُ كثيراً عندما تعاملت معها بهذه الطريقة. لم تعد تطلب بيرة منذ ذلك التاريخ.

وزوجتي تحبّ الحرّ في الأكل، وتحبّ "السمكة الحرّة" بشكل خاص، فطلبتها من أجمل مطعم متخصّص بها على كورنيش البحر في عين المريسة.

وأنا ليس من عادتي الاهتمام بالأكل في البيت، فكلّ ما يتعلّق بالمطبخ من واجباتها، لكنني هذه المرّة وضعت عاداتي على جَنَب، وكذلك قناعاتي المرتبطة بهويّتي، والتي أنا فخور بها في كلّ حال، ولا أريد إطلاقاً أن أغيّرها، ولا أن تتغيّر، ولا أن يغيّرها أحد، إلا ما شاءت الأيّام.

أردت إسعاد زوجتي، ولذلك حضّرتُ هذه الوليمة ذلك المساء. وأردت منها أن تعي كم أنها تعني الكثير الكثير بالنسبة إليّ، وأردت أن أبكي وأنا أقوم بكلّ ذلك طوال ذلك النهار، نتيجة شعور عميق بأنني تصالحت مع نفسي إذ تصالحت مع زوجتي واتحدتُ بها وصرت وإيّاها واحداً. وربما كانت هذه الرغبة في البكاء أيضاً نتيجة شعوري بأنّ ما أقوم به ليس من عملي كرجل، وهو لذلك أمر مخجل، خصوصاً أنني أقدمت على شيء لا يقدم عليه رجل، فقد غسلت ثيابها الداخلية في غمرة اندفاعي للبرهان لها أنها تعني لي الكثير.

لم يكن في الحقيقة غسلاً لثيابها الداخلية بالمعنى الحرفيّ ما قمت به، لكنه كان شيئاً من هذا، فقد رأيت في الحمّام في طشت صغير كيلوتَها وكلّونَها منقوعين منذ الصباح قبل خروجها، فشطفتهما، ثمّ حرت أين أنشفهما، على حبل الغسيل على البلكون في الشمس، أم في الداخل في عتمة الحمّام؟ فقلت في الشمس! وكانا وحدهما معلقين، كأنهما معروضان. وضعتْ يدها على فمها حين رأتهما، كأنها تمنع نفسها من الصراخ بسبب هذه المفاجأة، وركضت تلمّهما عن المنشر وتخفيهما في الدرج، كأنها تمنع عنهما تعرّضهما للعيون. كدت أبكي، لأن المبادرة إلى إصلاح ذات البَين بين الرجل والمرأة هي من واجبات المرأة، لكنّ الرحمة والرأفة والعفو والنسيان من واجبات كلّ إنسان.

فوجئتْ حين عادت ورأت كلّ ما ينتظرها. التلفزيون والاشتراك والعشاء! وصارت ضحكتها رطلاً.

"يا إلهي كم أنا محظوظة!" قالت وهي تنظر إليّ بامتنان عميق، وبتقدير كبير أيضاً. وانتهزتُ فرصة غمرها لِي، وتقبيلها إياي على فمي مباشرة، لآخذها بين ذراعيّ بشدّة، وأُجري بها إلى التخت، فتركتْ نفسها لهواي دون معارضة أو ممانعة، بل بالعكس كانت مبسوطة، ومدّدتها على التخت وتمددتُ إلى جانبها، ورحت أداعبها على مهل وبرويّة وهداوة، لا أسرّع الأمور فلا حاجة إلى السرعة بينما نحن في بيتنا، وأمامنا المساء والليل بطولهما. ولكنني في الوقت نفسه كنت أقول: نمارس الآن وأبلغ مرّة أولى ثم أعيد الكرّة ما استطعت بعد العشاء، أو عندما نذهب للنوم. وحين رأتني استغرقت في الأمر نهضت فجأة كأنها انتفضت، وقالت دعني أتحمّم أوّلاً، فقلت لها: بل تحمّمي في ما بعد، خلّينا الآن على مزاجنا الجميل، فقالت لا! لا أحبّ فعل هذا إذا لم أكن ما زلت خارجة من الحمّام.

إنّ ما احتجّت به ليس صحيحاً بتاتاً، لأنها أحبّت فعل هذا عدة مرّات و لم تكن ما زالت خارجة من الحمّام، بل بالعكس، كانت تنهض إلى الحمّام لتستحمّ فور أن ننتهي وغالباً ما كان فور أن أنتهي أنا. وكنت أحبّ ذلك منها وما أزال، لأنه دليل على عدم خبرتها المفرطة في هذه الأمور، ودليل بياض في نفسها، فاعتبارها ما يرافق الجنس من إفرازات وسخاً هو دليل عافية في الأخلاق بمعنى ما، وطهر في النفس، وشحّ في الخبرة. لكنني لم أُعِر كبير اهتمام إلى بواعث رغبتها هذه لأنها بدت لي صادقة، فهي بالفعل وكما قالت لم تتحمّم طوال هذا النهار، ثم إنه كان نهاراً مشمساً ومُشْوِباً نسبيّاً، وربما نزلت وطلعت درج البناية مراراً عند والدتها لأن المصعد كان

معطلاً، وهو يتعطّل دائماً ولا يصلّح بشكل جدّي بسبب الخلافات بين المالك والمستأجرين. ومرّة علقتْ في المصعد وكان معها طالب فرنسي. قلت لها إنها لا بدّ خافت كثيراً:

– أكلتيها رعبة!

قالت لا بالعكس، فقلت لها:

– "شو يعني بالعكس؟"

قالت "لم أخَفْ،" فقلت "لكنك تخافين دائماً عندما يعلق بك المصعد." قالت "أخاف كما يخاف كلّ الناس."

وفهمت من عجقة الكلام هذه، أنها لم تخف عندما انقطع بها المصعد وكان الشاب الفرنسي فيه. و لم أظنّ لحظة في تلك الفترة أنّ هذا الفرنسي كان يرافقها، أو كان على علاقة بها. وعلى كلّ حال لم يعد يَسكن هناك منذ فترة طويلة، و لم يعد هناك من ظرف ليتعطّل المصعد وهي فيه وحدها معه، وغير خائفة.

خرجت من الحمّام وقالت "ما رأيك في أن نتعشّى الآن؟ فأنا لا أستطيع الصبر على هذا العشاء الطيّب." قلت و لَمَ لا؟ فلنأكل الآن! وكان الأكل طيّباً جدّاً فقد أحبّته وشكرتني على هذه المبادرة، وقالت إنها في الحقيقة لم تكن تتوقّعها. كما أنها لم تكن تتوقّع إطلاقاً أن أشطف ثيابها الداخليّة المنقوعة، لكنها لم تعد تأتي على هذا الذكر وكأنها نسيته، وكان هذا دليل لياقة منها ودليل نبل.

لكنّ فرحتي للأسف لم تكتمل تلك الليلة، لأنّ الذين اشتركتُ

عندهم لم يأتوا ليمدّوا لي الأنتين، وليركّبوا أدوات الاشتراك الأخرى وليركلجوا المحطّات، قالوا غداً، رغم أني حاولت إغراءهم بدفع المزيد من المال، لكنهم لم يستطيعوا. قلت لها غداً تكتمل فرحتنا، فقالت إنّ هذه ليست مشكلة: نستطيع انتظار نهار آخر! فقدّرت موقفها المتفهّم، وارتحت لسلام نفسها. لكنها ما كادت تنتهي من العشاء حتى قالت إنها تعبانة، فاقترحتُ عليها أن نذهب معاً إلى الفراش بعد أن نشيل الطاولة، وقلت لها إني أنا أيضاً تعبت من الجري طوال هذا النهار. وبدون أن تجيب اتجهت إلى غرفة نومنا، وما إن بلغت التخت حتى رمت نفسها عليه، على بطنها، كأنها لم تعد تتمالك قواها من شدة التعب، وأغمضت عينيها وامتنعت عن الكلام والحركة كأنها غفت فوراً، و لم تعد تجيب على كلامي إلا بعد إلحاح، وبأصوات تشبه الهمدرة أكثر مما تشبه الكلام، ثمّ غفت بالفعل بينما أنا أدلّكها، فتابعتُ تدليكها وهي غافية، وكنت أحسّ من حرارة جسمها وليونته بين أصابعي، أنها تشعر بأمان تام مطلق، وأنها في غفوة هانئة نادرة، وهذا ما دعاني إلى المتابعة بحرارة أكثر، وبحنان أكثر، وبانتباه أكثر، ثمّ لما أصبحت كالعجينة بين يديّ، نزعتُ عنها ما يعوقني فقط من ثيابها، وذهبتُ فيها، دون أن ألقي بثقلي عليها حتى لا أزعج إيقاع تنفسّها. كانت لحظة نادرة من لحظات عمري، وكانت هي تستقبلني في إغفاءتها وكأنّ هذه الإغفاءة من أجلي ولي، وبلغتُ بسرعة والحالة على ما هي عليه من سعادة نادرة، لكنني سحبت نفسي منها في اللحظة المناسبة، و لم أنزِل فيها.

أنا عادة لا أُنزل فيها كيفما اتفق لحكمة لم أَبُحْ لها بها إطلاقاً. فأنا أريد

صبيّاً لا بنتاً، ولهذا طريقة في المضاجعة، وفي الإنزال بشكل خاص، فحتّى تحبل المرأة بصبي يجب أن تكون في وضع محدّد، لكنني هذه المرّة لم أنزل فيها لسبب آخر لا علاقة له بحبلها، لأنها حبلى منذ فترة، و لم يعد لكيفيّة الإنزال أي أهميّة، لقد أرقت عليها صراحة لأنني أحببت أن أريق عليها صراحة! فتململتْ بعد قليل، بعدما برد مائي عليها، لكنني سارعت إلى مسح أثري عنها بمنشفة بلّلتها بالماء الساخن قليلاً. قالت بعد أن انتهيت، وبعد أن أحسّت أني أنهض لأنصرف إلى شيء آخر: إيّاك أن تكون وسّخت ثيابي أو شرشف التخت! قلت لا! لا تخافي! انسكب كلّ شيء عليكِ! أين عليّ؟ قالت بنبرة - أتظنني بلاط رصيف؟ قلت بل على ظهرك وإليتيك! أكيد؟ قالت، قلت: آه! قالت: مسحتَ جيداً؟ قلت: آه! أظنّ أنها خافت من أن يكون بعض مائي بلغ الشَعر منها هناك، فيكون عليها النهوض لتغتسل. ثم غفت.

لكن كلامها الأخير هذا، المتذمّر نوعاً ما، لم يكن عن سوء نيّة قطعاً، ولا عن رفض لي بالتأكيد، بدليل أنني، وأنا أحاول الذهاب فيها وهي غافية تماماً تعثّرتُ، فأحسّت عليّ أنني تعثّرت فساعدتني وهي غافية ببعض حركات ناعسة من مؤخّرة جسمها، حتى جاء الشيء على الشيء تماماً. وكان استقبالها لي حيث مضيت لزجاً شديد اللزوجة رحباً، لا ناشفاً زامّاً منكمشاً كما هي الحال في أغلب الأوقات، كان كَفَم يزبد بلا أسنان. هذا دليل قاطع على أنني بدأت أصير، إن لم أكن صرتُ، شيئاً جميلاً في أعماقها. إلا لمن أراد إغماض عينيه حتى لا يرى.

في تلك الليلة، غفوت كطفل آمِن، وأحسست أنّ الأمور بيننا ستمشي، وأنّ كلّ شيء سيظبط. كانت في فراشي بكلّ معنى الكلمة، كانت قربي ولي.

عندما حضر الذين اشتركتُ عندهم بالكابل، نحو العاشرة تقريباً من قبل ظهر اليوم التالي، كانت زوجتي تتهيّأ للخروج عند والدتها التي ستساعدها في انتقاء وشراء بعض الحوائج الداخلية. كانت دائماً تمضي النهار عند والدتها بحجّة، وفي الفترة الأخيرة كانت تحتجّ بالأشياء الداخلية. لم تكن تصرّح بطبيعة هذه الأشياء، لكنني كنت أعرف بلا حاجة للتصريح، فالطفل على الأبواب وهو بحاجة إلى عناية منذ الآن، لذلك كنت أتركها تذهب بدون المزيد من الأسئلة التي تغضبها كلّ مرّة. فمنذ فترة قرّرت أن أتركها تذهب عند والدتها، دون أن أعمل من ذهابها كلّ مرّة قصّة.

بعد حوالى الساعة والنصف، كان التلفزيون يلعلع في صالون البيت بثمانين محطّة فضائيّة وأرضية، محليّة وخارجيّة. كان العامل التقنيّ يتأكد منها محطّة محطّة، وكان يعدّها لي بفخر من اعتاد على الدهشة، ويعطيني بعض المعلومات عن كلّ واحدة منها، وكان يعطي مزيداً من التفاصيل عن محطّات محدّدة قال إنها تبثّ الأفلام "الجريئة" في الليل، فقلت له مستفسراً: وإذا كان في البيت أولاد؟ فقال نمنعها عن المشترك إذا شاء. وحين انتهى من تجاربه، واستقرّ كلّ شيء على الجودة، أخذتُ منه الريموت ووضعته على الطاولة أمام الكنبة التي تجلس عليها زوجتي، وقلت إنني لن ألمسها حتى تجيء هي وتدشّنها بيديها الجميلتين. فهذا في طبعي وطبيعتي.

أحبّ أن تكون أنثى أوّل من يستعمل شيئاً جديداً لي. أحسّ برعشة حينذاك، وأحسّ باطمئنان. وخرجتُ.

بين الثانية والثالثة عدت إلى البيت بعدما تغدّيت مع "أصدقاء الخميس"، فمن زمان، قبل زواجي بالتأكيد، وأنا وعدد من الأصدقاء من عدد من الطوائف التي تتألف منها العائلة اللبنانيّة الواحدة، على هذه العادة: نأكل ملوخية أوّل خميس من كلّ شهر في مطعم "البلو نوط" الذي يقدّم، ككثير من المطاعم البيروتيّة المنتشرة حول الجامعة الأميركيّة في بيروت، الملوخية صحناً يومياً في هذا النهار. وكنّا خمسة شرب منّا أربعة أنا منهم، وكان ما شربناه نبيذاً أحمر لبناني الصنع، ولبنان ما زال في مرحلة الانتقال التي لا تنتهي إلى زمن العافية بعد حرب طويلة مدمّرة، وفي كثير من الناس حنين إلى السلم وحبّ خاص لبلدهم الجريح. وكان هذا النبيذ طيّباً فشربت. كان هذا الغداء مناسبة لمديح الوطن، لبنان، بلد التعدّد والتسامح؛ ها نحن على طاولة واحدة، أصدقاء، منهم من يشرب ومنهم من لا يشرب، ومن لا يشرب يرفع كأسه مليئة بالماء ليشرب على شرف من نحبهم ونتذكّرهم. يجب أن يستمرّ هذا البلد في الوجود: كأس لبنان المتعدد المتسامح، لبنان الحريّات العامة والخاصة، لبنان الصحافة، لبنان الذي تتمتّع فيه المرأة بحريّة نادرة في المنطقة كلّها، والتي تشارك فيه المرأة مشاركة خطيرة في ثورة الإعلام المرئيّ والمسموع... إلخ.

بين الثانية والثالثة إذن كنت عائداً إلى البيت، وعلى الرصيف عند مدخل البناية التي أقيم فيها، التقيت بها، بالخيّاطة التي خاطت لنا البرادي منذ أقلّ من شهر.

كنتُ عائداً من هذا الغذاء، وقد أكثرتُ من الأكل والشرب، وأكاد أغفو على رغبة صريحة لكن في زوجتي التي لن تعود قبل الغروب، أي بعد ثلاث ساعات أو أربع. ليتّها كانت هنا، حتى ولو لم تكن على المزاج ذاته الذي أنا فيه. كنتُ أصررتُ كعادتي عندما أكون مهتاجاً إليها وهي في غير هذا الوارد، وكانت تدبّرت الأمر بمعرفتها، إنها لم تخلُ يوماً من حِيَل ومخارج.

لم أكن أعرف اسمها بعد، ولا أعتقد أنّ زوجتي كانت تعرفه. لم نسألها عن اسمها حين ذهبنا لعندها، عندما كنّا نبحث عن أحد يَخيط لنا برادي شبابيك الشقة التي استأجرناها لنُقيم فيها بعد زواجنا، فدلّنا الجيران عليها، فقصدْناها حيث تقيم مع أهلها، كانت عزباء وما تزال، وكان عمرها مثل عمر زوجتي تقريباً، وبعدما عرضنا لها ما نريد، وافقت، واتفقنا على أن تجيء لعندنا في الغد، حتى تأخذ القياسات، وحتّى نتّفق على الأمور التفصيليّة الأخرى.

عندما عرفتْ أننا ما زلنا عروسين، وأنه لم تمضِ بعد على زواجنا أيّام، احمرّت احمراراً يُشغل البال، لا احمرار حياء، وصارت تنظر إلى زوجتي كأنها تحاول أن تعرف ما كانتْ عليه قبل الزواج، وما صارت إليه بعده. كانت عيناها تشبه "سكانر"، على حدّ تعبير زوجتي، أو تشبه آلة تصوير المستندات، كأنها تقابل بين هذه النسخة التي أمامها والنسخة التي ترسمها في ذهنها وتتخيّل أن زوجتي كانت عليها.

كانت هذه الخيّاطة تنظر إلى زوجتي بدهشة، وبانَ العَرَقُ على جهتي أنفها، وكانت تحتمي من نظراتنا بحجابها تُنزله على جبهتها

ما استطاعت، وتحني رأسها ساترة عينيها.

- كأنّ عينينا فلاش كاميرا سينطلق ما إن تُديم نظرَها فينا صراحة!

قالت زوجتي.

- كطفل يتّقي لومَ والديه! قلت.

هذا التضعضع الذي أصابها، ربما كان نتيجة للغيرة التي اشتعلت فيها، ربما غارت من زوجتي ورغبت في أن تكون مكانها. ثم سألتنا من أرشدنا إليها، قلنا لها الجيران، قالت أيّ الجيران؟ ما اسم-"-ه" (- شو أسمو؟)، قلت لها الدكّنجي، فتطلّعت حولها كأنها تتأكد من خلوّ المكان إلا منا وقالت: الذي على الزاوية أم الذي في الوسط؟ قلت بل الذي على الزاوية، فسكتَتْ.

سكتت سكوت من أراد أن يتدبّر أمره وحده.

أردتُ أن أقول لها إن كثيرين دلّونا عليها وليس فقط الدكنجي الذي على الزاوية، لكنني سكتُّ أنا أيضاً، مع أنني وددت من كلّ قلبي قول شيء. الدكنجي الذي على الزاوية أعزب، هذا ما عرفته سريعاً في ما بعد. ضَعْضَها بلا شك أننا كنّا عروسين، أي إننا كنّا نستمتع ببعضنا بما شئنا، وحيث شئنا، ومتى شئنا، وبالطريقة التي نريد، وبالقدر الذي نريد، وبالجدّ وبالمزاح، وبالنظافة وبالكسل، وأثناء النوم وفي اليقظة، وعراةً وبكلّ ما علينا، وبلا حرج وبلا عيب. يحق لنا ما شئنا شرعاً مشرّعاً، بينما هي عزباء تموت من رغبة لا يمكنها قضاؤها. وبين الرجل والمرأة ما بينهما مما حرّم الله كثيراً، إلا بالزواج! فإنه الحقّ

الذي تنزاح به الجبال عن صدور الصبايا، ويرتاح به القلب والبال.

ثمّ سألتنا صراحة سؤالاً غريباً لا يخطر على بال، سألتنا إن كنّا تزوّجنا عن حب أو عن "زَهَقْ"، فقلت لها "شو يعني عن زَهَقْ؟"، قالت يعني لكثرة ما كان الواحد منكما يقول لنفسه "يا الله! يا الله! خليني خلّص من هالقصة بقا"، ولكثرة ما كان يلحّ الأهل عليكما وخصوصاً عليها، يعني تزوّجتما من تعب، واستسلاماً لمشيئة مَنْ حولكما، هذا هو الزَّهقْ. فاضطربتُ، إذ لم أفكر إطلاقاً بهذا الأمر من قبل، بل أحسستُ فجأةً أن هذه الفتاة تعرّيني، فهل تزوّجت عن "زهق" أنا أيضاً؟

أوّل لقاء لي بزوجتي كان لقاءً مدبّراً بهدف الزواج. لم أكن أعرفها من قبل، بل سمعت بوجودها المرّة الأولى من خالتي، التي صارت منذ فترة مهتمّة بزواجي أكثر من والدتي بالذات، لكن ربما بسبب والدتي بلا شكّ، التي كان وضعي كعازب بلا زوجة يضغط على أعصابها، لكثرة ما كان ينشغل بالها عليّ: فكيف سأتدبّر أمري بدونها إذا ما تعرّضتْ لسوء أو ماتت لا سمح الله؟ وإخوتي وأخواتي أغلبهم مسافرون مقيمون قسم منهم في الخليج وقسم في أوستراليا، ومن بقي منهم في بيروت منصرف إلى عائلته.

قالت لي خالتي فجأةً ذات يوم: سأعرّفك على ابنة جيراننا التي تسكن في البناية المقابلة. "بتجنّن!"

غريب هذا الشعور بالتعرية الذي أثاره فيّ كلام الخيّاطة على الزواج عن "زَهَقْ". وإحساسي بالغرابة هذه متأتٍّ من أنني لست من هؤلاء

الناس الفائقي الحساسية، الذين لا ينامون إذا لم تحطّ آخر طائرة في آخر مطار على الكوكب بسلام. لا! فأنا أغفو لأني مقتنع بأنّ هذه الدنيا ماشية كما هي ماشية، بي وبدوني. فلماذا أضطرب إذا نبّهتني إلى أنني ربما كنت تزوّجت "عن زهق"، أو عن "لأنّ الناس يتزوّجون"؟ ولماذا يجب على الناس أن يتزوّجوا "عن" سبب آخر؟ فعندما بدأ الناس يتزوّجون عن حبّ كثر الطلاق!

ورغم ذلك، أقصد رغم الفجاجة نوعاً ما، التي أبدتْها هذه الفتاة، كان في عينيها نداء استغاثة أسر انتباهي، كما لو أنه ضوءٌ منبِّه محذِّر مُنذر، يُضيء ثم ينطفئ طويلاً. كنت أتساءل عندما صرت ألتقي بها في الطريق بالصدفة، كيف أن أهلها يسمحون لها بالخروج من البيت وفي عينيها هذا الضوء المستغيث! كنت أقول إن والدها وإخوتها لا بد يضربونها دائماً على وضوح هذا الأمر الذي يجب أن يخفى، وكنت أحزن لذلك كثيراً، وكان هذا الحزن يذهب بي أحياناً إلى حدّ التساؤل عن كيف يمكنني مساعدتها! ثم كنت دائماً أعزّي نفسي بالقول إنّ أَحَداً بلا شك لا يرى في عينيها ما أراه أنا. لكنني نادراً ما التقيت بها وحدها، كانت دائماً ترافقها صبيّة أصغر منها، في العشرين من عمرها أو أقلّ، وكان هذا بإرادة أهلها الذين كانوا يخافون عليها أن تتنقّل وحدها، لمعرفتهم بها. وهذا ما كان يذهب بعزائي ويعيد إليّ حزني.

لكنها كانت وحدها هذه المرّة، عندما التقيتها على مدخل البناية وأنا عائد من ذلك الغداء في المطعم، فتقدّمت منها فوراً بلا قرار أو إرادة أو عزم، بل بتلقائية من هو مبرمج ليقوم بذلك. ولا أقول مبرمج لأبرّر

ما قمت به، بل لأن هذا ما كان. أحياناً يُسرع الإنسان في المبادرة إلى شيء خوفاً من أن يفكّر في عواقب الأمور فيتردّد، لكن هذه لم تكن حالتي، فلم أُسرع خوفاً من أن أغيّر رأيي. أعتقد أنّ كلمة مبرمج هي أصلح الكلمات لوصف هذه الحالة. كانت رؤيتي لها بمثابة الضغط على فأرة الكومبيوتر لينطلق النظام حسب المرسوم. وهكذا تقدّمتُ منها وقلت لها إن البرادي بحاجة إلى إصلاح، فقالت دون أن تنظر إليّ صراحة: "ما حلّنْ!" قلت: "بلى!" وتابعت طريقي وأنا أشير إليها برأسي بأن تتبعني، فتبعتني. كانت تسير ورائي ببضع خطوات.

فتحتُ الباب ودخلتُ، لكنها ظلّت واقفةً لم تدخل، فقلت لها ادخلي! فلم تتحرّك ولم تجب، فشددتها إلى الداخل. وسألتني وأنا أغلق وراءها الباب إن كانت زوجتي هنا فلم أجب، بل أحطتها بذراعيّ ورحت أقبّلها، وأداعب أحجامَها، وهي ليسَت مستسلمةً ولا رافضة بل مضطربة، ومتمتّعة بلا شكّ، إلى أن مددت يدي إلى أسفل البطن ما بين الفخذين فانطلقتْ في الشهيق والزفير، كحيوان برّيّ لا حيلة له أخرى، وبعد لحظات تحوّلتْ إلى حِمْل بين يديّ، إلى حمل ثقيل فجأة! فمدّدتُها على الكنبة بعدما كادت تقع. كانت فاقدة وعيَها، لكنها حيّة. كانت تتنفس لكن عاجزة عن الكلام، إلا بعض الآهات الدَورية. ولم يكن فيها ما يخيف إلا عيناها المشقوقتان على بياضهما، فأطبقتُ على شفتيها فورَ أن مدّدتها على الكنبة، ظنّاً مني أن ذلك يزيد في متعتها، ويساعدها على اجتياز المرحلة التي هي فيها الآن، والتي هي مرحلة اللذة القصوى أثناء البلوغ. لكنّ فمها كان كشيء وحده غير مرتبط بمركز يمكن التعامل معه. كان عليّ أن

أفهم إذن سريعاً أن الفتاة غابت عن الوعي، وأني في ورطة يجب أن أخرج منها على الفور، قبل أن يتفاقم الأمر وتتعاظم مفاعيله. لكنّ معلوماتي الطبيّة نادرة، والفتاة ليست غائبة عن الوعي غياباً عاديّاً نتيجة برد أو إعياء، أو شيء من هذا الذي يعرف الناس مداواته بماء الزهر، أو بفنجان شاي، أو بما يشبه ذلك، فرُحتُ أتنقّل في البيت راكضاً بين غرفة وغرفة، كأني سأجد الحلّ في هذه الأثناء، أو كأنّ الحلّ هو التنقّل وحسب. ثمّ لمّا طال الوقت دقائق وهي ما زالت على هذه الحال، قرّرت أن أتصل بأهلها فوراً، وبما أني لا أعرف رقم هاتفهم، ولا حتى ما إن كان لديهم هاتف، قرّرت أن أذهب لعندهم مباشرة لإعلامهم بالأمر، ورفع المسؤولية عني، فإنهم أهلها وأدرى بها، وسأدّعي أنها جاءت لتصلح عطلاً في البرداية، فأحسّت بالضعف وهي على الدرج، وتحاملت على نفسها حتى بلغت الكنبة. يجب أن أقول لهم إنها بلغت الكنبة وحدها، وتمدّدت عليها وحدها، حتى لا أثير حَرَجَهم إذا ما قلت لهم إنني حملتها كلّ هذه المسافة ما بين الدرج والكنبة، عدّة أمتار، فليس من السهل على الأهل وخصوصاً الإخوة أن يقبلوا بهذا، أي أن يقبض أجنبيّ على كلّ جسد أختهم هذا القبضَ، طوال كلّ هذه المسافة، حتى وإن كانت غائبة عن الوعي. وسأقول لهم إن زوجتي خرجت، بعدما طلبت منها ابنتُهم ذلك، لتشتري غرضاً للبرداية.

كنت متأكداً من أن زوجتي لن تصل إلا بعد أن يكون البيت خلا من وقت طويل، يكون أثناءها كلّ شيء عاد إلى نصابه وطبيعته، لكنّها وصلت بعد وصولهم فوراً، دقيقة أو دقيقتين لا أكثر، دخلت وهي

تصرخ بصوت عال مستفسرة "شو في؟ شو في؟" طبعاً كانت تتوقّع كلّ شيء إلا هذا، أن ترى زوجها يُعامل على أنه معتدٍ ومغتصب! زوجها الذي لا يملّ من التكرار على مسمعها أنه يحبّها، وأنّ حبّها يكبر كلّ يوم في قلبه.

- "بحبّك!"

عشرات المرّات في اليوم الواحد. بحيث إنها قالت لي ذات يوم: "نيّالك!" فما أسهل قول هذه العبارة عليك! وأحببت يومها قولها هذا، لأنه كان بالنسبة إليّ تعبيراً عن رغبة منها في البوح بحبّها لي، لكنها كانت غير قادرة على تحقيق هذه الرغبة بسبب قلّة العادة، ولأن الحياء يمنعها وكذلك تربيتها المحافظة.

وكنت أضع لها كلّ يوم ورقة في إناء أو علبة من العلب التي تستعملها في الصباح، علبة القهوة، أو علبة السكر أو علبة الحليب، وكنت أكتب على هذه الورقة كلّ يوم عبارة جديدة جميلة أعبّر فيها عن حبّي، وكنت أجد هذه الأوراق أحياناً منسيّة على طاولة المطبخ أو على الغاز، وكنت أودّ في نفسي أن تحتفظ بها في مكان أمين، كما تحتفظ بالأشياء الغالية. لكنها كانت تُسرّ حين تقرأها بالتأكيد، لأني عندما سألتها المرّة الأولى عن شعورها تجاه هذه الأوراق احمرّت حياءً، وسألتني أين تعلّمت هذه الطريقة. و قد تعلّمتُ هذه الطريقة من مقال قرأته عن مفكّر لبناني يساريّ، اغتالته "القوى الظلاميّة" كما جاء في المقال، كان يحبّ زوجته كثيراً، وكان يكتب لها كلّ يوم عبارة تنتهي دائماً بنقطة تعجّب، يضعها في الآنية التي تستعملها.

والغريب في هذا المجال أن زوجته لم تكن تصدّقه، بل كانت تتهمه بأنه على علاقات دائمة بنساء أخريات. ومن هذه العبارات التي أوردتها كاتبة المقال:

"البحر الملتزم بضفافه!

البحر السعيد بضفافه!"

وفي 21 آذار وهو أوّل الربيع كتب لها:

"يليق بك الربيع!"

جاءوا كثيرين، الوالد والوالدة وأَخَوان اثنان وأخت وقريبتها الصبيّة التي أراها دائماً في صحبتها، ولم يأتوا معاً مرّة واحدة، بل على دفعات، وكانوا يدخلون مضطربين ويتركون الباب مفتوحاً وراءهم لا إهمالاً بل عن قصد، لأنهم كانوا يعرفون أنهم يجيئون دفعات، ولأنهم كانوا يعرفون أن مكوثهم هنا لن يطول أكثر من لحظات، الوقت الذي يتطلّبه حملها وإخراجها، لكنّ ابنتهم في هذه اللحظات بالذات بدأت تستعيد وعيها. وكان آخر الواصلين منهم أخاها الأكبر، الذي وصل بعد وصول زوجتي بلحظات قليلة. لم أرَه من قبل عندما كنّا نقصدها من أجل البرادي. نظرتُ إليه وهو يقترب منّي بإصرار حتى وصل إليّ وراح يضربني. تغلّب عليّ بالمفاجأة، لذلك استطاع أن يوقعني على الأرض، وأن يتابع ضربي وهو فوقي كما يشاء وبقوّة. فأجأني لأني لم أكن أتوقّعه من شرق لأفَاجأ به وقد جاء من غرب، ولا كنت أتوقّعه من غرب لأفاجأ به وقد جاء من شرق. فاجأني وكان

من المستحيل عليّ ألا يفاجئني، كالعدوان، فمن لا يفاجئه العدوان! صرت أصرخ به متّهماً إيّاه بالجنون لتسمعني زوجتي، التي كانت محاطة باللواتي والذين التفّوا حولها ليخبروها عن هذا الشرّير زوجها، الذي أهان هذه الفتاة الرقيقة في براءتها وشرفها وشرف أهلها، والتي تعاني من تعب أعصاب، وتعب الأعصاب مرض شريف. وأي كريم في هذه الأيّام، في هذه الأزمنة الرديئة لا تتعب أعصابه؟ وظلّ أخوها الأكبر ممسكاً بي يفشّ غضبه فيّ حتى انتبه لوجود زوجتي هنا، فقام عنّي بسرعة إليها، وأمسكها أمام الجميع، ورفع فستانها، ومدّ يده وقبض على فرجها من فوق الكيلوت، وصرخ حتّى يسمع الموجودون جميعهم: هذا كسّ-... الشر...

يا إلهي!

وكانت هي، زوجتي، تصرخ من ألمها في هذه الأثناء، وتنهمر دموعها بغزارة مدهشة على خدّيها، فانقضضت بلا وعي عليه لأثأر منه وأحرّرها من يديه الظالمتين الوسختين، لكنه كان أسرع منّي، فالتفت إليّ وأوقعني أرضاً من جديد. كان كالثور، كالعجل الهائج.

بعدما انصرفوا جميعاً، وكان هو آخر المنصرفين (ستدفع الثمن! قال وهو يخرج)، انتبهت إلى أنني وحدي في البيت، وأن زوجتي لم تكن في مكان. لم تكن في غرفة ولا في حمّام ولا على بلكون ولا تحت تخت ولا تحت كنبة بتاتاً. خرجت معهم ربّما أو بعدهم فانتظرتُ.

انتظرت أن يحين وقت وصولها عند أمّها واتصلت، فقالت أمّها: لا لم تأت! وكان جوابها قاطعاً مربكاً لكثرة ما هو قاطع، كأنها

أرادت أن تنهرني على اتصالي، كأني لا يحق لي الاتصال بزوجتي إذا ما حدث خلاف بيننا، أو إذا ما اعترضتنا صعوبة. وفجأة رنّ هاتف زوجتي النقّال، الذي لا يفارقها أبداً، منذ اشترته قبل زواجنا بكثير، كأنه شيء لا ينفصل عنها، وكان مرميّاً في الصالون على كنبة، فقلت "العمى!" معقول أنها ما زالت هنا و لم أرَها وقد فتشت عليها البيت زاوية زاوية! ثم ظلّ يرنّ دون أن تأتي لتجيب، فاضطررت إلى الإجابة وكانت والدتها على الخط! قالت وقد انشغل بالها فجأة حين سمعت صوتي على هاتف ابنتها: أين ابنتي؟ فحرت في ما أجيب، فقلت لها بعد تردّد: لا بدّ أنها ذهبت لتشتري شيئاً ما وستعود قريباً لأنها تركت هاتفها هنا. قالت: بل نَسيته بالتأكيد، ثم بعد لحظة صمت قالت بصوت مرتبك: أطفئه حتى تعود! فلم أقل لا! و لم أقل نعم! بل أقفلت الخط دون وداع أو استئذان، لتفهم أنني انزعجت من كلامها. فهل يحقّ لها التدخّل في هذه الأمور فقط لأنها والدتها! لكنني لم أقفل الهاتف لأضعه خارج الاستعمال، و لم يكن قصدي من ذلك معرفة أسرار زوجتي التي تخفيها عنّي، فلم أظنّ يوماً أنها تخفي أسراراً عظيمة عنّي، بل كنت على يقين من أنها في حال أخفت شيئاً عنّي لن يكون سوى قصص نساء فيما بينَهنّ لا قيمة لها. وبعد أقلّ من ربع ساعة انقطع خطّ هاتفها نهائيّاً. لقد اتصلتْ بالشركة وطلبت منها أن تقطع الخطّ مدّعية أنّها أضاعت هاتفها!

- واضح!

أقصد أنّ موقفها واضح، أي إنها تريد التصعيد.

نعم! لكن هذا لا يعني بالضرورة أنها تتلقّى اتصالات من ناس يجب أن يبقوا مجهولين منّي، تربطها بهم علاقات غير مشرّفة.

ثم اتصلتُ بعد ذلك عدّة مرّات، لكن والدتها هي التي كانت دائماً تجيب بالكلام ذاته: ليست هنا!

لكن أين يمكن أن تكون في المساء إن لم تكن هنا! بل إنها هنا! قلت لوالدتها، فهل من عادتها ألا تنام في البيت؟ ثمّ أخيراً قالت إنها هنا لكنها لا تريد أن تكلّمني! فقلت: بسيطة.

وقلتُ في نفسي، يجب ألا تشغلني زوجتي الآن عن الاهتمام بما يجري من الناحية الأخرى، من ناحية أهل الخيّاطة، وقلت إنّ مفتاح المسألة هناك، لا بدّ أن يكون عند الدكّنجي العازب، الذي سألتنا عنه بعدما خرج من كان في المكان وأصبحنا وحدنا. لم يكن من السهل عليّ الظهور في الشارع بهذه السرعة، والحادثة ما زالت طازجة ولا بد أن تكون حديث الناس الأوّل، خصوصاً أنه في هذه الأيّام ليس هناك من حديث طاغ يلهي الناس، فقد انتهت حرب الخليج، وانتهى قصف العراق وصور الجيش العراقي جثثاً في الصحاري أو جنوداً تائهين، وانتهت أيضاً حرب لبنان، وليس في العالم من طارئ الآن يُشغل الناس، كمذابح البوسنة والهرسك وكوسوفو، أو دكّ الشيشان، أو قنص أسامة بن لادن الموجود في أفغانستان، بصاروخ أو صاروخين من سفينة حربيّة أميركيّة في عرض المحيط الهادئ، بمساعدة الأقمار الصناعية، ولا المصافحة الشهيرة بين عرفات ورابين في واشنطن. ولم تقصف إسرائيل في ذلك النهار المحوّلات

الكهربائية فتنطفئ الكهرباء في بيروت لأشهر كاملة... لم يحدث شيء من هذا بعد ظهر ذلك اليوم الذي نسيت أنا المعنيّ به اسمه وتاريخه. لم يحدث شيء يلهي الناس عن حادثتي فكيف أخرج؟ ورغم ذلك خرجتُ وأردت أن يكون خروجي تعبيراً عن براءتي، تعبيراً صارخاً. قلت للدكنجي الذي كان أكبر منّي بعشر سنوات على الأقلّ، يعني أكبر منها بحوالى خمس عشرة سنة، طلبت منه أن يكون صريحاً معي، وقلت له إنني سأكون صريحاً معه. قال: ما فعلتَه لا يجوز فعله! قلت: وماذا فعلت؟ قال: حاولتَ الاعتداء على فتاة بريئة وثقت بك. صعدت لعندك على أساس أنك متزوّج وزوجتك في البيت، قلت: هذا صحيح! قال: لا لم تكن زوجتك في البيت. أليس من العيب أن تأخذها بهذا الشكل ما إن دخلت عتبة بيتك ورائحة الخمر طالعة منك! هذا عيب ولا اسم آخر له! أعرف ما حدث معك بالتفصيل، فإيّاك أن تكرّرها! فسألته إن كان يقربها فنفى، لكنه قال إنه هنا في هذا الحيّ، من قبل أن تولد هذه الفتاة، وإنه يعرفها جيّداً، وإنها فتاة عاقلة ومهذّبة لكنها عندما تتأثّر كثيراً تغيب عن الوعي. ثم نصحني بأن أنتبه من إخوتها لأنهم قادرون على فعل كلّ شيء، وهم لا يخجلون من شيء، فعادة الناس الذين مثلهم والذين يحدث لهم ما حدث فإمّا يثأرون فعلاً وإمّا يتستّرون، لكن هؤلاء يعمدون إلى الابتزاز. ما من مشكلة معهم إلا وتنحلّ بالمال، وإلا فكن حذراً منهم، فقد يرفعون دعوى عليك، فعندهم شهود كثيرون وبين هؤلاء الشهود شاهد لا تردّ شهادته: زوجتك! وأنت لا تستطيع أن تُقيم دعوى عليهم، لأنهم فعلوا بزوجتك ما فعلوه، فهذا خارج عن كلّ

زعم عندك على ما أقدّر، ولا أعتقد أنني مخطئ في هذا التقدير، أنت رأيت بلا شك أين تمسّك بها الأخ الأكبر، وكيف شدّها حتى بكت من الخجل أكثر مما بكت من الوجع، ودُهشتَ أنت نفسك من غزارة دموعها المنهمرة على خدّيها، فلن ترضى زوجتُك بأن ترفع دعوى حتى وإن رضيت أنت، ولا يجوز لك رفع دعوى عنها ضدّ إرادتها. أنت في ورطة يجب أن تحلّها بالمال!

يا إلهي! من أين يعرف كلّ هذه التفاصيل؟ وهل يمكن ألاّ يكون منها بالذات؟ هذا يقين! إن بينهما علاقة صامدة على الأيّام.

- تدخَّلْ! قلت له.

قال لا! أنا لا أستطيع أن أتدخّل وأن أؤدي دور الوسيط، فبيني وبينهم عداء مستحكم وقديم، بسببها!

ولم يشأ أن يبوح كيف بسببها ولا بشيء آخر.

نصحني أن أتصل بهم فوراً وأن أعرض عليهم حلاًّ، خمسمئة دولار، فتُغلقُ الصفحة فوراً ويُنسى الأمر نهائيّاً.

- أكيد؟

لم يؤكّد لي مائة بالمائة، لكنه نصحني بأن أفعل، فمن يستطيع أن يضمن شيئاً مائة بالمائة، فقد يطلبون مثلاً أكثر من هذا المبلغ. لكنّ سلوك هذه الطريق يؤدي إلى الحلّ، بلا شكّ، في رأيه.

وفي ساعة متقدّمة من المساء الذي أمضيته في التفكير في نصيحة

الدكنجي، بدون الوصول إلى قرار، وبدل الاتصال بشقيق الخياطة اتصلتُ بزوجتي، على هاتف بيت أهلها في محاولة أخيرة للكلام معها، فردّت هي بالذات من أوّل رنّة، وهذا ما كنت أتوقعه، كنت أتوقّع أن تكون جالسةً أمام التلفزيون، تحضر واحداً من هذه الأفلام التي تحبّ أن تتمثل ببطلاتها، والهاتف قربها في متناول يدها، خوفاً من أن يرنّ فيوقظ والديها، لأنها كانت تتوقّع بلا شك أن أتصل. لم تتكّلم كثيراً رغم إلحاحي، بل اكتفت بكلام مقتضب، قالت إنها لن تعود إلى البيت. نقطة. أمّا جوابي فكان بكلّ ثقة: "أفضَلْ!" ومن الأشياء التي قالتها لي: لن أمضي وقتي أخدمك وأنت في السجن بسبب محاولة اغتصاب بنت الجيران المريضة! أيّ اغتصاب هذا، وأيّ مريضة وأيّ بنت الجيران! أنتِ تعرفينها على الأقلّ مثلي إن لم يكن أكثر منّي.

وأيّ سجن تتكلمين عنه؟

لكنني قبل أن أختصر موقفي التصعيديّ بهذه الكلمة الوحيدة الحاسمة الواثقة "أفضَلْ!"، حاولت أن أشرح لها كيف أنني بريء من كلّ ما حاولوا إقناعها به. لم أفعل شيئاً! قلت لها، بل هي أحسّت بانزعاج فجأة بينما كانت على السلّم تتفحّص البرادي. أمّا عمّا كان بها البرادي، فقلت لها إنها كان ينقصها عدّة حلقات لم ننتبه لها. وقلت لها إني التقيت بالخيّاطة صدفة وأنا عائد إلى البيت، وأخبرتها بأمر هذه الحلقات، لكنني لم أفكّر لحظة بأنها ستصعد فوراً. لكنّ زوجتي لم تكن تريد أن تسمع، بل كانت مقتنعة بما لديها من أخبار. بل كانت مقتنعة بما تريد أن تقتنع به، وبما يناسبها. وكانت مقتنعة

بصواب موقفها وقرارها بعدم العودة إلى البيت. وحين قلت لها متسائلاً:

– لن تعودي إذن هذا المساء؟

قالت:

– لا هذا المساء، ولا المساء الذي يليه، ولا في أيّ مساء!

– "أفضَلْ!" قلت لها بكلّ ثقة.

و لم يبقَ لي خيار آخر، وأنا وحدي في البيت آخر المساء وأوّل الليل، سوى أن أدشّن تلفزيوني الجديد بنفسي، في غياب زوجتي، فما معنى أن أنتظر وقد لا تعود إلا بعد أيام، وربما بعد أسبوع أو أكثر، فهي عنيدة بطبعها، وستحاول لا شك أن تفرض عليّ شروطاً جديدة كما في كلّ مرّة نختلف، حتى ولو كان اختلافنا على أشياء تافهة، فهي تعمد دائماً إلى تكبير الموضوع، ولا تتراجع إلا بعد أن تشعر أنها أحرزت موقعاً جديداً. وعلى كلّ حال، فهذه ليست المرّة الأولى التي تترك فيها البيت وتنام عند والدتها، لذلك فأنا مطمئنّ إلى أنها ستعود، مع أنني أعرف أن هذه المرّة ليست كالمرّات السابقة.

– لن أمرّ بعد الآن في هذا الحيّ كلّه، صرخت بي على الهاتف.

لن أقوى على تحمّل اللقاء بها أو بأحد من أخوتها! ومع ذلك أنا مطمئنّ إلى أنها ستعود، لأنني لم أكشف بعد عن كلّ أوراقي، و لم أشهر بعد هذه الأوراق، في وجه والدتها، أمام الناس، حتى تخفي رأسها بين كتفيها خجلاً من ابنتها التي تدافع عنها. حينذاك ستعود

صاغرةً ذليلةً وستلتزم زاوية في البيت لا صدره! لكنني لا أريدها إلا أن تعود كريمةً مكرّمة، إنها زوجتي!

لن تطول إقامتها كثيراً خارج بيتها، ستعود.

قد تستمرّ أيّاماً لكنها ستعود.

فكّرت بالتأكيد أن أبقى على رغبتي الأولى، أي أن أنتظرها تدشّن هي تلفزيوننا الجديد، لكنني لن أتحمّل الانتظار هكذا أيّاماً وحدي، بينما هي تتنعّم بما تشاء عند أهلها. وفي لحظة غضب تناولتُ الريموت وأدرت التلفزيون، ورحت، بلا أي شعور بالذنب أتنقّل بين المحطّات أتعرّف عليها!

- يا إلهي!

عشرات المحطات من جميع أنحاء العالم! ثمانون محطّة! بكلّ لغات الأرض وألوانها. إضاءات مختلفة، وديكورات مختلفة، وأشكال بشريّة، وأفلام. أمّا الأفلام على جميع المحطّات فتكاد تكون جميعها باللغة الإنكليزية، ومنها المترجم ومنها المدبلج ومنها الذي بالإنكليزية الصرف وبلا أي مساعد آخر. أمر مدهش فعلاً. وأحسست بالانزعاج الشديد لأنني لا أعرف الإنكليزية، وشعرت كم من الأشياء تفوتني. شلالات من الأخبار والأشياء والأفلام والبرامج تتدفق أمامي، بدون أن أفيد منها كما يجب، فأحسست بالظلم، وقلت إن معرفة الإنكليزية في هذه الأيّام شرط من شروط العدل.

لا أدري كم من الوقت مضى، وأنا أتنقّل من محطّة إلى أخرى، وأفرز

المحطّات وأرقّمها على ذوقي، إلى أن وقعت على فيلم فعل فيّ فعل الصدمة الكهربائيّة. فيلم بورنو! فهل تشاهده زوجتي؟

هذا أوّل ما بادر إلى ذهني. ووددت أن أكلمها فوراً لأسألها، فليتها لم تنسَ هاتفها هنا، فما كانت ألغت رقمه واستبدلته بآخر، وكنت اتصلت بها عليه، فمن غير المعقول أن أتصل بها في هذه الساعة المتأخرة من الليل على هاتف البيت. وذهبت بي الظنون بعيداً بينما هذه المشاهد تطول أمامي ولا تنتهي، ذهبت بي الظنون إلى حدّ التساؤل عمّا إذا كانت زوجتي تحضره وحدها عند أهلها النائمين بكل تأكيد، أو برفقة أحد آخر، لأنه من عادتها على ما أظنّ، أن تُدخل أصحاباً لها، آخرَ الليل، بينما والداها نائمان، وقد أدخلتني مرّة في آخر الليل بهدوء كي لا يفيق والداها. من هنا قالت لي، اجلس هنا قالت لي. أجلستني في زاوية من الصالون تعرف أن والديها لا يستعملانها أبداً وجلست قربي، وأمضينا وقتاً طويلاً متلاصقين في وضع حميم، ويدي حرّة التصرّف بهدوء، بينما كنّا نتفرج على فيلم جريء. وقبل خروجي بحت لها بأنّ هذه أوّل مرّة في حياتي يحدث لي ذلك، أي أن أسهر عند فتاة إلى هذا الوقت المتأخّر، في بيت أهلها النائمين، وبهذا الشكل، وكنت أتوقّع منها أن تجيبني أنه بالنسبة إليها هي أيضاً كانت هذه أوّل مرّة، لكنها لم تجب بشيء، وكأنها لم تنتبه إلى ما قلت.

وما زالت هذه المشاهد التي تجري أمامي، تثير فيّ مزيجاً من الدهشة والقرف والإثارة والخوف. الخوف ربما من أن يفاجئني أحد. والإرباك أيضاً، الإرباك لعلّ الذين لا يخجلون مما يفعلونه أمامي

ينتبهون إليّ، إلى أن أحداً يراهم. ثم كالصفعة الصاعقة أتلقى نظرة المرأة إليّ، بينما هي متعلّقة بقضيب شريكها كأنه خشبة خلاص، أو كأنه "لقيّة" نادرة يُسفك الدم من أجلها. كالصفعة أتلقى نظرتها إليّ، إلى الكاميرا، بسوقية ظالمة مفسدة لذّتي وشعوري بالكسب والحميميّة. كأنها رأتني أنظر إليها باهتمام وانصراف كلّيّين، فسخرت منّي قائلة لي، شفتك أنت كمان. أو كأنها قالت لي بهذه النظرة أنها لا تقوم بذلك سرّاً، بل تعرف أنّ الكاميرا تنقلها إلى الآخرين. فأحسستُ أن الآخرين يرونني أيضاً، واغتظتُ واشتعلتْ فيَّ الغيرة حين حطّت الكاميرا على ذكَر الشاب، وهو بين يدي شريكته الجاثية عنده، وأظهرته كنصب وثنيّ ساطع ساط متمكّن، اشتعلت فيّ الغيرة لأنني تذكرت ما قالته لي زوجتي قبيل زواجنا، وكنّا عند المغيب في نزهة على شاطئ البحر على كورنيش المنارة، كانت الشمس كقرص نار متوهّج بدأ يلامس البحر، فوقَفنا أمامه نتأمّله، وكنت مستغرقاً في التأمّل والتمتّع بهذا المنظر الجميل الحالم اللطيف، هذا المنظر المدهش والأليف في الوقت عينه، وكانت هي تبتسم وتحاول السيطرة على رغبتها في الضحك. قلتُ لها انظري ما أجمل هذا المنظر! كأنّ قرص الشمس كتلة نار تغرق في البحر، إني أعجب عندما يلامس هذا القرص الملتهب الماء ألاّ يتصاعد البخار ويملأ الأفق! فانفجرت بالضحك بلا سبب، فتعجّبت، وبدون أن أسألها قالت إنها سمعت أحداً يشبّه قرص الشمس هذا برأس قضيبه المنتصب! قال: "ليكو الشمس مثل راس أيـ..."

ممن تسمع هذا الكلام وأي نوع من الناس تعاشر؟

ماذا تقولين؟ قلت لها مندهشاً غير مصدّق ما تسمعه أذناي، لأني كنت أتوقع أن يعجبها ويؤثّر فيها هذا الكلام الشاعريّ اللطيف، الذي كنت أقوله لها بصوت خفيض يناسب هذا المنظر الساحر، قالت: تذكّرتُ ما قاله صاحب صديقتي أمام هذا المنظر، وكان غاضباً منها، قال بعدما سألته: ألا تحبّ الغروب، انظر إلى هذه الشمس التي مثل... و لم يدعها تكمل بل أكمل عنها قائلاً: مثل راس أيـ...!

وراحت خطيبتي التي ستصبح زوجتي بعد وقت قصير، في نوبة هستيرية من الضحك، فانتفخت عيناي وأنا أسمعها تقول ذلك، ثم وأنا أراها تضحك هكذا غير قادرة على السيطرة على نفسها، والناس الذين لا يصطافون خارج المدينة لضيق ذات اليد، بدأوا بالتوافد على الكورنيش، مع غياب الشمس وانحسار حرّ النهار. فما المُضحك في هذا التشبيه السوقيّ، وقد يضحك من هذا حسب علمي وتجربتي رجال في ما بينهم، ورجال من مستوى معيّن. ولمّا رأتني في هذه الحيرة أخذت بيدي وقالت: أنا سعيدة لأنك يا زوجي على هذه الدرجة من التهذيب. أحبّك! لقد خجلت مما قالته وندمت، وهذه علامة منعشة على تطوّرها في الاتجاه الصحيح، لذلك يجب أن أكون طويل البال فالأمر يستحق، إنه زواج على مدى العمر وأولاد ومصير، يجب أن أدعها بلطف تكتشف كلّ مرّة خطأها، بدون أن أقمعها قمعاً.

أحببت منها أن تناديني زوجها، ونحن لم نتزوّج بعد، وكنت أحلم أن تقول لي أحبّ أن أحبل منك قريباً، وكنت أتوقّع منها أن تقول لي ذلك قبل زواجنا، أو بعده لكنْ قبل أن تحبل، وكنت أحبّ وأتوقّع أن

تقولها لي بالإنكليزية Pregnant على عادتها عندما تتكلّم عن مسائل تستدعي الحياء، وهذه كلمة تعلّمتها منها لأنها تقولها دائماً بدل أن تقول حبلى. لكنّ الأثر الجميل الذي تركته فيّ عندما نادتني بالزوج، لم يمنعني من التفكير بالصدمة التي أحدثها فيّ هذا التشبيه الغريب. فهل صحيح أن ما أخبرته هو عن صاحب صديقتها، أم أنها اختلقت صديق صاحبتها اختلاقاً، بينما الحقيقة أنها هي التي ترى هذا الشبه، بين قرص الشمس الذي يختفي وراء البحر، على شاطئ بيروت، ورأس ذكَر الرجل المحمّر من اشتداد وهيجان؟ ومن أين لها هذا؟ فالإنسان يقيم الشبه بين أشياء يعرفها، أو خبِرها.

وما زالت هذه المشاهد تجري أمامي، وتستبدّ بي، حتى تعاظمت رغبتي بشكل لم أعرفه إطلاقاً من قبل. قالت لي زوجتي مرّة، إنّ أفلام البورنو كالسماد الكيماوي الذي يسرّع نموّ الثمرة، ويعظّم حجمها إلى أبعد الحدود، لكنه يُفقدها الأهمّ أي الطعم والنكهة! فمن أين تعرف هذا زوجتي التي تقول دائماً حين تراني أعجب من كلامها، أو حين تقرأ في عينيّ أسئلة وظنوناً، إنها قرأته في مجلّة بالإنكليزية؟

ثمّ ارتخى جسمي وأحسست أن التعب يستبّد بي استبداداً، فسحبت عدداً من محارم الكلينكس التي انسحبت معها ورقة يانصيب تجريه الشركة المصنّعة لتروّج بضاعتها، ومسحت بها مائي، وقبل أن أغفو على الكنبة التي أنا جالس عليها، تمنّيت لو أستطيع أن أغطّي هذا الجهاز الذي أمامي، أقصد التلفزيون، بشيء سميك، بحديد فولاذ، حتّى لا يفيض منه ما يدبّ فيه ويسعى. يا إلهي! هذه هي القنبلة الذريّة التي يتكلّمون عنها، فهل يمكن أن ينفجر؟ هل كان والدي يخاف منه

إلى هذا الحدّ، فأخّر حصولنا عليه ما استطاع، ثمّ لمّا حصلنا عليه كان صارماً في التوقيت الذي وضعه لجلوسنا أمامه. كان يردّد دائماً أن التلفزيون يسبّب له وجعاً في القلب، وأنه يلبكّه ويخربط مزاجه، ويجعل باله ينشغل علينا نحن أولاده. لم نعد وحدنا في بيتنا، كان يقول، و لم نعد بشراً كاملين، بل أصبحنا عيوناً شاخصة وآذاناً صاغية وحسب.

نمت وأنا مضطرب ممّا رأيت، فهذا الفيلم وحده يكفي ليهدّ جبلاً، وهذه العشرات من المحطّات التي تهدر كالشلالات، في هذه العلبة الجهنّميّة، ونهار ملآن. لن أتصل بشقيق الخياطة غداً، ولن أدعهم يتزّونَني، ولن أدفع لهم قرشاً واحداً مقابل سكوتهم عنّي، وسأخرج غداً من بيتي بشكل طبيعيّ جداً كأن شيئاً لم يكن، لأنّ شيئاً لم يكن.

كنت أتوقّع أن تتصل بي خالتي ذات يوم قريب، لتسألني أو تخبرني أو تطمئنّ عليّ على الأقلّ، لكنها لم تتصل. سأتصل بها وأقول لها إنْ كانت على علم ألا تخبر والدتي. لا أريد أن تعرف والدتي قبل أن تتّضح الأمور، إنه لأمر مخجل أن ترى ابنها يتخبّط بلا حول ولا قوّة في موقع الضعف هذا. ستشعر بالقهر. فبما أنّ إصلاح الأمور ما زال وارداً فلا داعي لكشف ضعفي تجاه زوجتي أمام عينيها، ولا داعي لجعلها تتحمّل هذه الصدمة، وأن تهتم هذا الهمّ. ولا أريد أن يعرف أحد.

أيمكن ألا تكون والدتي على علم حتى الآن؟

قلت في مطلع النهار الأوّل على هجر زوجتي لي: هذه مرحلة عضّ

أصابع بيني وبينها. وهي مرحلة ما زالت في بدايتها، فعليّ أن أجيد المناورة، وأن أكون شديد الحذر والانتباه. يجب ألا أنسى أنني لم أقترف ذنباً، و لم أفعل شيئاً يستحقّ القصاص. يجب أن أصرّ على هذا الموقف الذي هو صحيح! يجب أن أتصرّف كأنّ كلّ ما حدث مركّب بعناية، كأنه فخّ، كأنّ هذا تاماً ما تريده زوجتي، كأن ما تتمنّاه من زمان قد حصل. وهذا صحيح. حجّتها الآنَ معها. لكنني رغم كلّ شيء مطمئن إلى أنها ستعود.

ستعود غداً إن لم يكن اليوم.

لم أتصل بأحد من أصحابي طوال هذا النهار، وشغّلتُ المجيب الصوتي حتّى لا أجيب إلا على من أريد، وكنت أريد الإجابة بالتأكيد على شقيق الخيّاطة، الذي اتصل مرّتين، وترك رسالة يقول فيها اسمه فقط، وكنت لا أريد الإجابة أيضاً على من قد يسألني عن زوجتي من الأقارب أو الأصحاب. فليس من السهل الكلام على هذا الموضوع لأنه يفضحني، أقصد أنه يفضح وضعي في البيت، ويفضح كونَ الأمور ليست خاضعة لسيطرتي. فلا أرضى أن يقال عنّي أن زوجتي ليست خاضعة لسيطرتي. فلا أرضى أن يقال عنّي أن زوجتي تغلق الباب وتمشي حين تشاء، كأنني غير موجود. ولا أرضى أن يقال عنّي إنني لا "أُشبعها" ولا "أُوفّر" لها كلّ ما تريد. لأن الشائع في وسط أصحابي، أنّ الزوجة إذا كان "يُشبعها" زوجها، جنسيّاً، طبعاً، و"يوفّر" لها كلّ ما هي بحاجة إليه، فلا يمكن بعد ذلك أن تعترض على شيء. "أنْسَمُّ" حين أتذكر الآن ما يقوله دائماً أصدقائي، إن فلانة "تنام" مع فلان، لأن زوجها يغفو ما إن يضع رأسه على المخدّة،

لأنني أبقى الليل لا أغفو محاولاً جرّها إليّ، بالحيلة في أغلب الأحيان وبالقوّة أحياناً. أمّا إذا كانت نظريّة أصحابي صائبة، فيجب أن أكون أنا من يهرب لينام مع امرأة أخرى، لأنّ زوجتي ما إن تضع رأسها على المخدّة حتّى تغفو كالقتيل! "زوجتي تولول عندما ألجها" قال مرة أحد الأصحاب، قاصداً بذلك إبلاغنا، أن فحولته لا تتحمّلها امرأة، أي إنه يُحسد عليها، وأن امرأته لا يمكن أن تهجره، أو أن تغلق الباب وراءها يوماً، دون أن تقول له "بخاطرك"، لأنها تدرك أنها لن تجد رجلاً بفحولته، فالنساء يتناقلن الأخبار. وهذا نيشان يجب أن يُعلّق على صدره.

لم أتصل بأحد من أصحابي طوال هذا النهار الذي أمضيته في البيت وحدي، أتفرّج على التلفزيون - هذا العالم المدهش. كان والدي فعلاً على حقّ بمعنى ما، من حيث إن التلفزيون عالم يضعضع الإنسان على الأقلّ، لما فيه من سحر خطير وفاعل ومؤثّر. كدت وأنا أتفرّج على هذه المشاهد والنساء الساحرات، والبرامج، والحيوانات والغابات، أنسى مشكلة الخيّاطة ومشكلة زوجتي، وتفرّجتُ على المرأة التي ولدت بنتاً على غصن شجرة، لجأ إليها عشرات الهاربين، من الطوفان الغامر بلادهم بكاملها، فجاءت الهليكوبتر التي كان طاقمها من البيض، وخلّصت المرأة ومولودتها أوّلاً، ثم خلّصت الآخرين، وفاجأتُ نفسي أتمنّى أن يكون بين المسعفين لبنانيّون، لأن صيتهم هناك في أفريقيا، كما تبلغنا الأخبار هنا في لبنان، ليس طيّباً على العموم. وشاهدت نزول الإنسان على القمر في فيلم استعاديّ، وشاهدت الحياة الجنسيّة عند بعض الحيوانات، ولا أخفي أنني

اهتجت، وشاهدت عارضات الأزياء على مدى الساعات الطوال بكاملها، عارضات عارضات عارضات، وثياب وثياب وثياب، من المعطف الذي يخبّئ كامل الجسد، إلى المايوه الذي لا يخفي إلا ما يرفع العتب، وثياب لا تخفي إلا لتبين، وشاهدت فيلماً أعتقد أنه ألماني تتباوس فيه فتاتان دون العشرين بلا شكّ، بحبّ ورغبة وشغف، وشاهدت مباراة في كرة القدم، بين ناديين من الإكوادور، لم أحلم يوماً بمشاهدتها، وقد أخبرتني زوجتي مرّة أن مادونا المغنيّة الشهيرة، ورمز الأنوثة والجنس، اشتهت حارس مرمى المنتخب الإيطالي، وأبدت رغبة في لقائه. وشاهدت دورة في كرة المضرب، يعني التنس، وفي كرة السلّة، يعني الباسكت، وسور الصين العظيم، والسَحرة والمشعوذين، ولاعبي السيرك وبينهم نسوة ممشوقات ساحرات. وما الذي لم أشاهده طوال ذلك النهار؟

أنا متأكّد مائة في المائة، أنّ زوجتي إذا كانت الآن أمام التلفزيون، فإنها لن تنهض عنه إلا بعد أن تكون قد نسيت أنّه كان لها زوج ذات يوم، بل إلا بعد أن تكون نسيت أنني ولدت ذات يوم، وأنني دببت برجليّ الاثنتين على قشرة هذه الأرض الغليظة. فهذا شيطان، أقصد التلفزيون.

لم أتصل بأحد طوال ذلك النهار، لكنني في المساء اتصلت بها – زوجتي – فردّت والدتها، وقالت إنها ليست موجودة، فقلت شكراً، وأقفلتُ الخط في وجهها بكلّ بساطة، "انسمّيت" من هذا الجواب الذي يدّعي الجهل والبراءة، والذي يعبّر عن موقف تتخذه يعفيها من التدخّل لمصالحتنا و لمّ شملنا. لم تسألني عن شيء، و لم يبدُ

عليها أنها مهمومة إطلاقاً أو مشغولة البال على مصير ابنتها. وقلت بعدما طبشتُ التلفون في وجهها: أنا أيضاً لست مشغول البال! "يصير اللي بيصيرا" وتمدّدت أمام التلفزيون (حسناً فعلت أنني اشتريته! يا إلهي! فكيف كنت تصرّفت طوال هذا النهار؟) ورحت أتنقّل بين المحطّات، علّي أقع على فيلم جميل أو على برنامج أو على شيء أمضي السهرة في التفرّج عليه. كنت متهيّباً أن أقع على فيلم كفيلم الأمس، لكنني لم أقع عليه. ثم أطلت التنقّل و لم أقع على شيء يعجبني، لا على المحطّات الفضائية ولا على المحطّات الأرضية، لقد انتهت حرب الخليج الآن، فلن أرى الطائرات الأميركية والإنكليزية والفرنسية تقصف أهدافاً عسكريّة في العراق وتصيبها بدقّة، ولن أرى سماء بغداد كقطعة كبيرة من Chaos معتمة، تخترقها خيوط مضيئة يُفهم من السياق أنها قصفٌ لأهداف عسكرية، فندمت! ندمت لأني تأخّرت في شراء التلفزيون إلى هذا اليوم، فقد فوّتّ عليّ ليالي مثيرة. ثم إن حرب لبنان قد انتهت أيضاً، فما الذي ستعرضه أقنية التلفزيون المحليّة إذن هذه الليلة؟ لا شيء! تفاهات تملأ بها ساعات إرسالها اليوميّة، وبرامج فيها نساء شابّات، سافرات عن وجوههنّ وزنودهنّ وأفخاذهنّ، وبعض بطونهنّ أحياناً، يُغرى بهنّ أهل الخليج العربي فيتسمّرون أمام هذه الشاشات على حدّ زعم بعض الصحف المحليّة هنا.

ورحت أتابع التنقّل من محطّة إلى أخرى، إلى أن وقعت على مشهد جميل: بروفيل امرأة أعرفها، ميريل ستريب، تسند خدّها بيدها وفي إصبعها خاتم زواج، في لقطة تشبه لوحةً رائعةً رأيتُها ذات

يوم في مكان ما، ربما في كتاب. في هذا الوجه كما هو مصوّرٌ سرٌّ، وسلام داخلي وروعة! وجفنان متثاقلان بطيئان حين ينغلقان وحين ينفتحان. ودام هذا الكادر لحظات طويلة ممتعة، قالت أثناءها السيدة عبارةً واحدة، قدّرتُ أنها I love you وربما تضمنّت هذه العبارة أيضاً كلمة أخرى وردت في آخرها، لم أستطع تمييزها، ربما كانت اسم الشخص المخاطَب، أي اسم ابنها الذي بدا لي في ما بعد أنها توجّه له الكلام.

أنا لا أعرف من الإنكليزية شيئاً، إلا بعض مفردات وعبارات باتت لكثرة استعمالها كأنها عربية، مثل أوكي ودارلينغ وَ وَاوْ و تي في، وعبارة I love you بالتأكيد التي لا يجهلها أحد، خصوصاً إذا قيلت بوضوح وعلى مهل. وقد تأكّدت عمليّاً أنها قالت هذه العبارة بالذات، بعدما أظهرت لنا الكاميرا بالفعل ولداً، صبيّاً على الأرجح، في الفراش أمامها.

يبدو إذن أنني أمام امرأة تُنيم ابنها، وتستمتع بهذه اللحظة الآمنة. لكن اللافت أن هذه المرأة لم تكن في هيئة المساء، أي في هيئة من تحرّرت من ثياب النهار، بل كانت في هيئة المرأة التي تستعدّ للخروج. ولكن كونها في هيئة الخروج لا يغيّر شيئاً في افتراضي أنها والدةٌ تُنيم ولدها، وتقول له وهو يغفو I love you لأن الخروج في المساء عادةٌ تعرفها نساء أميركا منذ... ربُّك عليم كَم، وهو أمر شائع جداً، لأنّ النساء هناك كالرجال، يعملن في النهار ويخرجن في الليل.

شدني المشهد لأنه جميل، ولأن فيه كميّةً كبيرة من الهدوء المطمئنّ

ومن سكينة النفس، ولأنني أحب هذه الممثلة، ميريل ستريب، ولأن امرأة تنيم طفلها في المساء مشهد رائع، قد أكون في طريقي إلى أنْ أُحرَم منه، لأنّ امرأتي، أقصد زوجتي، تركتني و لم يمضِ على زواجنا شهر واحد، وعادت إلى بيت أهلها لشيء فعلتُه مستهجن بالتأكيد ومرفوض بدون شكّ وغير لائق وما شاءت من الأوصاف، لكنّه ليس سبباً لأن تهجر امرأة زوجها. لا شيء يستحقّ أن تهجر امرأة زوجها، إلا الأذى، فعندما تقع امرأة على مجنون يجب أن تطلّقه بالتأكيد.

سعدتُ حين تأكدتُ أنّ المرأة، ميريل ستريب، قالت لابنها: I love you فما أجمل مشاعر الأمومة وقيَمها، الحنان والتضحية والانصراف الكلّي! ففي أميركا، بلد الحريّة بل بلد الفلتان، تحنّ المرأة وتضحّي وتنصرف إلى الاهتمام ببيتها، (والحقيقة أنه يسعدني أن يكون هناك حنان وأمومة في أميركا، لأن كلّ من فكّ حرفاً عندنا يحتجّ بأمثلة من أميركا، على ضرورة تحرير المرأة ومساواتها بالرجل.) أمّا زوجتي فأخذت على خاطرها لأنّي "حاولت اغتصاب فتاة بريئة مريضة!" كما تدّعي. وأحياناً تذهب بعيداً في تداعياتها وتدّعي أنني اغتصبتها بالفعل، وأنها قد تكون حبلت منّي:

– أنا أرفض أن يكون لأولادي أخ أو أخت بالطبيعة، يسمّيه الناس سفّاحاً، وحتى لو أجهضها أهلها فإنه سيكون لهم أخ متوفٍّ أو أخت متوفاة!

زوجتي إذن ضدّ الإجهاض! كنت أجهل ذلك لأنني لم أتناقش معها

في هذا الموضوع. إنها تعتبر أن الطفل المجهض ميت. هذه معلومة جديدة إذن تحصّلت لديّ عنها.

ثم انتقلت الكاميرا إلى رجل في مكتب، داستن هوفمان في مكان عمله بلا شكّ، يتحدث وهو واضع رجليه على المكتب، بينما زميله جالس وراء المكتب من الجهة المقابلة، (آداب السلوك في أميركا تختلف عما هي عندنا جذريّاً أحياناً). هنا قلت إن هذا الفيلم هو لا شكّ الفيلم الذي يلعب فيه داستن هوفمان وميريل ستريب معاً، والذي موضوعه الطلاق. إنها مناسبة إذن لحضوره. ولكن هل يمكن أن أتابعه حتى آخره، بدون أن أفهم منه كلمة واحدة؟

داستن هوفمان يتكلّم بسرعة، ويتكلّم كثيراً، فلم أستطع أن أفهم كلمة واحدة مما كان يقوله، وقد أنصَتُّ جيداً لعلّي أميّز كلمة أعرفها تمرّ في مجرى الكلام فأقدّر المعنى، لكن بلا فائدة. لم أستطع أن أميّز حرفاً من كلامه، فما كنتُ أسمع إلا ضجيجاً، قَطْراً من ضجيج، لكنه ضجيج أليف. إلا كلمة واحدة تاكسي! تاكسي! قالها عندما خرج بصحبة صديقه أو زميله في العمل، لكنني لم أفهم ما إذا كان يطلب تاكسي لأنه مستعجل، أم لأنه متأخّر عن موعد، أم لأنه من عادته أن يأخذ تاكسي عندما يعود من عمله إلى البيت، فالأميركيون أغنياء يستطيعون أن يسمحوا لأنفسهم بملذات كهذه، خصوصاً أنّ غالبية سائقي التاكسي عندهم من العالم الثالث.

كيف يُعرض فيلم على قناة موجّهة إلى منطقتنا، بدون أن يكون مترجماً؟ معقول؟ لا تكلّف ترجمة فيلم كهذا مئة دولار. غريب!

فماذا يصيب أصحاب هذه المحطّات ليعرضوا أحياناً أفلاماً غير مترجمة، أم أنهم يفترضون أن من يحضر مثل هذه الأفلام يعرف الإنكليزيّة، أم أنّ العولمة تعني أننا صرنا ضمن الأراضي الأميركية، أو صرنا نجيد الإنكليزيّة فجأة؟ أبصر! فقد تكون محطة تركيّة أو بولونيّة أو هولنديّة، من يدري!

عندما وصل داستن هوفمان إلى البيت، كانت ميريل ستريب تنتظره جالسةً متهيّبةً مستعدّةً، وشنطتها إلى جانبها، وتدخّن مشغولة البال، حزينة، مستغرقة في تفكير عميق، فهل هي مسافرة فجأةً، بعد أن بلغها خبر موت قريب لها، والد أو والدة أو أخ أو أخت. ثم قُرع الباب فنقزت! وقامت تفتح، فدخل (كعادته؟) وقبّلها سريعاً على فمها، (إنها زوجتُه إذن! فلماذا قَرع الباب، أليس معه مفتاح بيته، أليس زوجها) واتجه فوراً إلى التلفون وأجرى اتصالاً، وكانت تنتظر أن يُنهي مكالمته وفي وجهها كلام قوله صعب على ما يبدو، وكانت تنظر إليه بطريقة غريبة. قالت له شيئاً وهو يتكلّم، فسدّ أذنه ليستطيع الانصراف إلى ما يسمعه بالأذن الأخرى على الهاتف، ثم عندما أنهى مكالمته، راحت فوراً تُخرج أشياء من جيبها وتضعها على الطاولة، بعد أن ترفعها عالياً أمام عينيه ليراها بوضوح: المفتاح أوّلاً، ثم عدد من البطاقات التي يحمل منها الأميريكيون كثيراً، ثم حملت شنطتها وفتحت الباب لتخرج، فحاول منعها لكنّها أصرّت فشلّحها الشنطة فخرجت بدونها، ثم حاول منعها من أخذ المصعد لكنها بعد أخذ وردّ، دخلت المصعد وانتظرت أن ينغلق الباب، وفي هذه الأثناء كانا يقولان لبعضهما كلاماً كثيراً، لم أفهم منه كلمة واحدة، بل لم أميّز

منه حرفاً واحداً. فماذا يجري إذن يا إلهي، ماذا يدور بينهما على شاشة تلفزيوني الخاص الذي اشتريته بعد ألف جهد وحساب؟ ماذا يجري بينهما في بيتي؟ يبدو أنها ترحل رغماً عنه، فمن هو ومن هي، ومن هما بالنسبة إلى بعضهما؟ زوجان لهما صبيّ واحد؟ لماذا ترحل ميريل ستريب، هذه المرأة الجميلة، التي كانت منذ لحظات تنيم ابنها بحنان تجابه به جيوش الدول الغاضبة؟ فهل يمكن لزوجة مثلها أن تترك ابنها لزوجها وترحل؟ ماذا قالا لبعضهما، هل تريد العودة لزوجها السابق، أم أنها ذهبت لتُقيم مع عشيقها الجديد، هل يمكن لأمّ بهذا الحنان أن تفعل ذلك؟ ماذا يجري إذن؟ هل عرفت بعلاقةٍ ما بين زوجها وامرأة أخرى؟ هل اكتشفت ميلاً مثليّاً لديه؟

لا يا ميريل ستريب! إيّاكِ أن تكوني دعامةً لزوجتي، فأنا أحبّكِ وأقول لكِ ببساطة قد تعتبرينها سذاجة، أني في سرّي، أعتبر نفسي الرجل المناسب (الوحيد) لتسكبي دمعَ عينيكِ على كتفيه!

عندما انغلق باب المصعد ليخفي عنّي هذا الوجه الباكي الجميل، المضطرب الحزين، المشغول البال، فاجأتني الدعاية، فانتبهتُ إلى أن الفيلم استغرقني بالكامل، وأني كنت مأخوذاً به رغم أني لم أكن أفهم شيئاً على الإطلاق! كنت أعرف من القصّة أن الزوجين تطلّقا لسبب ما، وأن الزوجة ربحت الدعوى التي أقامتها على زوجها، وأن حكم القاضي أثار جدلاً في أميركا، لكنني لم أكن أعرف أن ميريل ستريب تهجر بيتها بهذا الشكل، وتترك ولدها الصغير لزوجها. يجب أن أحضر هذا الفيلم مترجماً. لا أستطيع متابعته هكذا بلا ترجمة. لست مازوشيّاً إلى هذا الحدّ.

ميريل ستريب امرأة رائعة تجذبني، أتمتّع بها وبرؤيتها تمثّل، وداستن هوفمان ممثل مقنع وذكيّ لكنه كرجل، لا يليق بهذه المرأة، إنه بشعره الطويل يشبه مثقفي الستينيات، الذين كانوا يطوّلون شيئين فيهم: شعرهم وعضو فحولتهم. وهو من حيث الجمال لا يساوي شيئاً منها، فيه شيء من ممثلي أفلام البورنو الشعبيّة الرخيصة، الذين إذا ما رأيتهم في ثيابهم لا يلفتون نظرك. يختارونهم فقط لضخامة فحولتهم. أعتقد أن امرأة كهذه تتزوّج رجلاً مثله لطيبتها وعدم إدراكها لقيمتها على الحقيقة، ثم إنّ رجالاً كهؤلاء يلعبون بعقول هذا النوع من النسوة، ويوهمونهن أشياء وأشياء، أو يشترونهن بكلّ بساطة. يوهم الواحد منهم المرأة التي من هذا المستوى الراقي أنه الفحل والبعل والغنيّ والقدير والأمل، والأنكى من كلّ ذلك أنه متى نالها لا يعود يحترمها على قدر ما تستحقه من احترام.

أعتقد أنّ الرجل الذي أطلّ من باب المكتب، نبّه داستن هوفمان إلى الوقت، قال له ربّما: ألم تتأخّر كثيراً؟ أو: أتدري كم الساعة الآن؟ لأن داستن هوفمن نظر فوراً إلى ساعته، قبل أن يكرّر الحركة التي كان يقوم بها، ونهض. فهل هذا الذي نبّهه إلى الوقت عارف بحال زوجته وبأنها تشعر بالإهمال؟ فما هذا الزوج الذي ينبهّه صديقه إلى واجباته البيتية؟ بل إلى واجباته تجاه زوجته؟ هل تشكو ميريل ستريب إلى هذا الرجل همّها، ألا يلفت ذلك نظر زوجها، فيسألها عن معنى هذه الصداقة الحميمة مع صديقه أو زميله؟ أم أنّ داستن هوفمن ذاته هو الذي يخبر زملاءه في المكتب، عن تذمّر زوجته الدائم، كما يفعل رجال كثيرون يتصرّفون دائماً على أساس أن هناك طواطؤاً في ما

بينهم على زوجاتهم، خصوصاً في بلادنا. أبو زهيد مثلاً، صديق المقهى، يقول في مجرى أحاديثنا إنه حين ينرفز من زوجته "بيطرقها ياه!" ويقول إنها لا تحب أن يأتيها في القفا، فيمسكها حينذاك بشعرها ويديرها ويزجّه فيها بلا ريق!

عيب!

عيب هذا الكلام، إنّ إفشاء أسرار الحياة الزوجيّة، وخاصة ما تعلّق منها بالفراش، وما يجري عليه بين الرجل وأهله، أمر مرفوض قطعاً بلا جدال.

بل عيب هذه الفعلة بشكل خاص!

ثم إنه يصهل بالضحك صهيلاً كالحصان، وهو يروي أخبار زوجته! إنّ هذا وضع لا يحتمل، ولو كنت مكان زوجته لطلّقته بدون تردد، ولهجرته فوراً.

هذه المرأة، ميريل ستريب، بل هذا الملاك، لو طلب مني أن اختار لها رجلاً، أقصد زوجاً، لصعب عليّ الأمر كثيراً واستحال، لكنني إذا أجبرت على أن أختار لها إجباراً، تمنّيتها للذين أحبّهم حبّاً خاصّاً. تمنّيتها لي، لنفسي، فمَن أولى بها منّي؟ وهذا لا يتناقض إطلاقاً مع حبّي لزوجتي، لأنّ كلامي هذا كلام مجرّد خارج عن كلّ واقع وكلّ سياق، ويعبّر عن رغبة لا يمكن أن تتحقّق أبداً، لأنّ تحقّقها يحتاج إلى توافر ألف شرط وشرط. وهذا الكلام لا يتناقض مع حبّي لزوجتي لأنني بكلّ بساطة أتلوّى من الألم بسبب هجرها لي، أحترق على

جمر النار، بحيث إن الأغاني العاطفيّة باتت تصحّ فيّ، بل كأنها كتبت لي. كنت حتّى الأمس أسخر أحياناً من هذه الأغاني العاطفية "اللي بتلعّي النفس!" كما كنت أصفها، لكنني الآن مضطّر إلى أن أغيّر رأيي، لأنها بصراحة تصيبني في الصميم! لكنّ هذا لا يعني أبداً أنني ضعفت، بل بالعكس، يجب أن أستمدّ من هذا الألم قوّة، حتى أخرج من هذه المعركة منتصراً، وحتى لا يتكرّر ما حدث أمس الأول في ما بعد، في المستقبل، وتصير عادة عندها أن تغادر البيت بسبب وبدون سبب.

الحقيقة أنني اكتشفت عمق مشاعري نحو زوجتي بعد هجرها لي. هذه حقيقة لا يمكنني نكرانها، وذلك رغم أني كنت أعرف أنني بدأت أغرم بها عن جدّ، وكم صرّحت لها بذلك، وكم قالت لي إن كلامي هذا يشبه كلام الشعراء في الكتب.

وحين أهديت لها سلسلة ذهباً وألبستُها إيّاها بيديّ، وحين رأيت السلسلة تستقرّ جميلةً حول عنقها، وتتدلّى حتى أوّل ما بين نهديها، قلت لها: "غلي الذهب!"

ولكنّ حبّي هذا لزوجتي، لا يتناقض مع اتخاذي الكامل بالفيلم.

لقد شغلني كثيراً وأنا أنتظر نهاية الدعاية: أين ستذهب الآن ميريل ستريب؟ شغلني الأمر حتّى استغرقني، وتصوّرت نفسي في المكان المناسب بالنسبة إليها، وكان هذا المكان على الطريق بين طرابلس وبيروت، وكان الجوّ بارداً وممطراً وسيّدة بنت ناس، "كلاس"، بلا شنطة، واقفة هناك لطارئ، تحاول أن تحتمي بيديها من الهواء

العاصف، فأتوقّف بسيّارتي أمامها تماماً. تردّدَتْ قبل أن تصعد، لكنها حسمت أمرها بعدما سبرتْ أعماقي وأدركت طيب معدني، بنظرة سريعة إلى عينيّ.

لقد تحوّلت ميريل ستريب إلى امرأة الحلم الذي أحلمه منذ سنوات طويلة.

لا أذكر منذ متى وأنا أحلم هذا الحلم، ربما منذ بدأتُ أشعر أنّ الزواج بات لزاماً عليّ، وأنّ كلّ دقيقة تنقضي من الآن فصاعداً ستجعل الأمر يزداد صعوبة:

وحدي في السيّارة في طريقي بين طرابلس وبيروت، أسير بسرعة، لا لأني مستعجل، بل لأنّ السرعة أيقظُ لحواسّي. تستوقفني امرأة في العمر المناسب، أي قريبة من الثلاثين، يبين عليها من هيئتها أنها "ستّ" بالفعل، وجميلة كما أحبّ أن تكون امرأة جميلة ومكتملة، كما هي المرأة التي يحلم أن يلتقي بها إنسان مثلي، فأتوقفُ دون أن تشير إليّ صراحة بأن أتوقف. وكانت هذه أوّل مرّة أتوقّف لامرأة في حياتي، فعادةً أتوقّف لعسكريّ أو لرجل دين أو راهبة، أي لذلك النوع من الناس الذي لا يسبّب المشاكل، والذي يسمح لك في الوقت نفسه بممارسة آدميّتك. لم أضطرب حين توقفت، كأني معتاد أن أتوقّف كلّما رأيت امرأة على الطريق تنتظر سيّارة، فاقتربتْ وانحنتْ وقالت بعد التحيّة:

– بيروت؟

فقلت لها:

- تفضّلي!

ثمّ إنها ما إن استقرّت حتى قالت لي:

لستَ مضطرباً مع أنها المرّة الأولى التي تتوقف لامرأة.

يا إلهي! أساحرة أم نبيّة!

- إن كنتَ فعلاً جادّاً فأنا مستعدّة للزواج بك فوراً. خذني! قالت ذلك بمزيج من الانفعال والخجل والحياء والإصرار أيضاً. وكان بادياً عليها أنها عميقة الإدراك لما كانت تقول. كانت عميقة الإدراك لغرابة ما تقول، لكنها كانت مصرّة على قوله! فتابعت طريقي وفيّ شعور يتعاظم ولا يُردّ بأن السعادة باتت لي بين يديّ.

الصدفة! ما أجمل الصدفة! ما أجمل أن تجري الأشياء هكذا بدون مبادرات أو حذر أو تردّد، أو حساب للنجاح والفشل!

لكنني غالبتُ هذا الشعور المتعاظم بالسعادة، حتّى لا أصاب في ما بعدُ بالخيبة ثمّ بالإحباط، لكنها كانت بكلامها تبعد كلّ داع لي لاستعمال دفاعاتي النفسيّة. قلت لها كيف عرفتِ أنني عازب، قالت: لم يخطر على بالي لحظة أن تكون غير ذلك، ثم إنك عازب في النفس حتى لو كنت متزوّجاً ومُقيماً مع زوجتك، أراهن بحياتي على ذلك (بل أراهن بكلّ أمل بقي لديّ بعد كلّ الذي يجري لي الآن وبعد كلّ الذي فعله معي زوجي! قالت ذلك في إشارة إلى الفيلم) قلت لها: والأولاد؟ قالت إنك أبٌ محبّ وحنون، تنذر

نفسك لأولادك، فمن غير المعقول أن تكون أنجبتَ من امرأة لم تشعر يوماً أنها لكَ ملكُك، نعم ملكُك (أتسمع؟) إلى الأبد. وإن كنتَ قد أنجبت ولداً فإنك لا بدّ أحسست سريعاً بالخطأ و لم تكرّره! فقلت لها وقد خضّني كلامها خضّاً عميقاً. أصبيّ ولدي أم بنت؟ فقالت: كنتُ في السابق أتمنّى أن يكون لي بنتٌ، لكنني الآن وفي ما يتعلّق بك، أتمنّى أن يكون عندك صبيّ لأنك تستحقّ راحة البال! قالت هذه العبارة الأخيرة بقناعة ما بعدها قناعة، وبحنوّ جعل نبض قلبي يزداد قليلاً، وحرارة جسمي ترتفع ارتفاعاً ملحوظاً! وعندما وصلنا قبيل الدورة أوّل بيروت، قلت لها: لم أسألك أين تريدين أن أوصلكِ، لأنني افترضتُ أنك لن تمانعي في إكمال الطريق معي إلى بيتي، لمزيد من التعارف، فقالت: أعترف لك بأنني مترددة في القبول، لكنني لست مقتنعة إطلاقاً بالرفض. كنت معك شديدة الوضوح، وهذه أوّل مرّة في حياتي أكون كذلك. لست بحاجة إلى أن أبوح لك، أنه ليس من السهل عليّ أن ألتقي بأحد في الطريق فيعجبني، وأذهب معه إلى بيته، لست من هذا النوع، مهما بدا عليّ أنني غربيّة المفاهيم ومتحرّرة. أنا في أعماقي ابنة "هنا"، أتسمع؟ أنا ابنة "هنا" عندما يتعلّق الأمر بالجوهر! وهزّت بقوّة وعزم قبضة يدها وهي تكرّر كلمة "هنا"، على طريقة المقتنعين حتى الاستشهاد بما يقولونه، وأضافت: أنا ابنة هذه الأرض الطيّبة المعطاء، وجذوري ضاربة فيها بعيداً.

هذا كلام خطير تقوله هذه المرأة. هذا كلام خطير. هذا كلام من بطون المتون! فهل أنا في حلم أم ماذا؟ وجاءني أن أقرص نفسي كما في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة، حين لا يصدّق الرجل من العامة

أنّ ما يجري حقيقة، وأنه في بيت أميرة رائعة الجمال وفي حضنها.

قلت لها لن أسألك أن تستقرّي على رأي، بل أسألكِ أن تثقي بي. ثقي بي بكلّ بساطة، قلت لها، جرّبيني، سلّميني زمام أمورك ساعة من الزمان. فتناولت يدي! لا أدري أين كانت يدي، فلم أشعر إلا وباتت بين يديها الاثنتين، كوديعة سماويّة إن فرّطّتْ بها أساءت لأنوثتها، وأساءت لطهر نفسها، وأساءت لسلامة طويّتها، بل إلى كلّ ما تبني عليه فخرَها بكينونتها، وشرفَ انتمائها إلى ذاتها وأهلها وأرضها. فكيف أردّ فيض السعادة عن أبواب نفسي، وكيف يمكن لهذه الأبواب أن تصمد أمام هذا الفيض الطاغي؟ وفي لحظات قليلة تغيّر محتوى نفسي، كوعاء أفرِغَ مما فيه ومُلِئ بماء طاهر مطهّر. فاضت في نفسي السعادة. فأنا أعرف ما هي السعادة، أعرف جيّداً. السعادة هي أن تأخذ امرأة مكتملة، بكلّ ما للكلمة من معنى، أن تأخذ يدَك وتضعها بين يديها اللطيفتين كالحرير، كالمحبّة كالأثير، كالحنان الذي أنت بحاجة إليه.

وقبلت أن تذهب معي إلى البيت. ولكن أي بيت؟

وعند هذه النقطة تماماً من الحلم، كنت أصطدم دائماً بهذه المسألة، مسألة البيت. فأين آخذها وقد وافقت على المجيء لعندي، وأنا أسكن مع والدتي في بيت العائلة وليس عندي بيت لي وحدي؟ ليتنا كنّا كبلدان الغرب، حيث يستطيع أن يدعو الفتى الفتاة إلى بيت أهله، وأن يختلي بها في غرفته. لكنني أسكن مع والدة لا همّ لها، منذ وفاة والدي، سوى أن تشكوني إلى أختها، خالتي، بسبب

ما تلاحظه على كيلوتاتي من أثر لمنيّ خرج منّي سهواً أثناء النوم. تخرجها عن أطوارها رؤية ذلك! تخبرني خالتي أنّ والدتي ترمي الكيلوت أحياناً إلى الزبالة لشدّة غضبها. وأنا منذ نبّهتني خالتي إلى ذلك، صرت أنتبه كثيراً، وأحرص على أن أزيل كلّ أثر. والمصيبة أن والدتي منذ وضعت في غسّالتنا الكاندي، غرضاً فيه شيء حديد مزّق جلد بابها، ودفعت أجر تصليحها مبلغاً كبيراً، صارت تتأكّد كلّ مرّة من كلّ قطعة تضعها فيها. قطعةً قطعة ترمي الغسيل فيها. والمشكلة أن الإنسان أحياناً لا ينتبه دائماً، فيخلع ثيابه ويرميها في سلّة الغسيل دون أن ينتبه، ومرّة رأت أثراً، منيّاً على الجهة الخلفيّة للكيلوت، فانشغل بالها وراحت تراقبني وتتقفّى هذا الأثر، حتى وقعت عليه مرّة أخرى ومرّة بعدها، فشكّت في رجولتي، ولم تتورّع عن الكلام في ذلك مع خالتي، والأحلى من هذا كلّه أنها صارت تبكي وتغنّي أغاني حزينة تندب فيها حظّها. اعتبرتني فوراً ابناً ضالاً ضائعاً، وأصدرت القرارات في حقي، في محاكمة غيابية لا سابق لها. أسرّت والدتي إلى خالتي أنها كانت تشكّ فيّ منذ نعومة أظفاري، وأنها كانت تشعر بالأسى عندما كنت مراهقاً، لأنني كنت دائماً ألعب دور الممثلات النساء عندما كنّا، أنا ورفاقي، نعيد تمثيل فيلم حضرناه في السينما أو في التلفزيون! ومرّة ضربتني بقسوة لا تُنسى حين رأت "زوجي" أو "خطيبي" أو رجلاً يقبّلني على فمي، وأستسلم له كما تستسلم للرجال هذه العاهرات في الأفلام! وحاولت خالتي إقناعها بأنه لا معنى إطلاقاً لكلّ هذه الظنون، وأني إنسان سويّ، ومن المستحيل أن

أكون مثليّاً. ثمّ إنّ والدتي سألتها من أين لها هذه القناعة الراسخة، فأُحرجت خالتي في ما تجيب! فكيف يستطيع الإنسان أن يبرهن ما لا يمكن برهانه؟ ودامت والدتي أشهراً كاملة، تستفسر في السرّ عن أصحابي وأصدقائي وتسأل عن علاقاتهم ومعارفهم النسائيّة. ومرّة قالت لي: لا أحد من أصحابك يعيش عيشة طبيعيّة! فقلت لها ماذا تقصدين، فجميعهم يعيشون عيشة طبيعية، فقالت لا! لا أحد منهم يعرف فتاة! قلت لها وكيف تعرفين ذلك، ومن أي كوكب أنت، فمنذ متى يصرّح الشبان عن علاقاتهم بالفتيات في بلادنا. ووالدتي التي قالت لي ذلك كان يغشى عليها من الغضب إذا رأت فتاة تلبس لباساً قصيراً، بل كانت أحياناً تبصق لتبعد الشيطان عنها وعمّن يرافقها، حين ترى رجلاً وامرأة في وضع "غير لائق"، والوضع غير اللائق بالنسبة إليها، هو أن يضع الرجل يده على كتف المرأة في الطريق، أو أن يضع يده في يدها. لم يعد أحد يخاف الله، كانت تقول. فاشتدّ بها الشوق إلى رؤية الشبان والبنات معاً، في الفترة التي اعتقدت أني مثليّ، وأنني فوق ذلك مثليّ مخنّث، أي أنني لست الذكر الفاعل بل الأنثى المفعول بها. ثمّ ذهب خيالها إلى التذكّر أنني حين كنت ألعب كرة القدم مع رفاقي، لم أكن أحبّ إلا أن أكون حارس مرمى! ضحكت خالتي كثيراً حين أخبرتْها والدتي بذلك، ولم تفهم المقصود تماماً إلا بعد أن شرحته لها. ففي ذهن والدتي أن ما يجمع بين حارس المرمى والأنثى، أن الاثنين هدف، وأن الاثنين يدخل فيهما شيء، وأن الاثنين ينتظران حصول الأمر بينما الآخرون يسعون إليه!

يا للمخيّلة الهائلة! المريضة! نعم المريضة! ألا يمكن أن تكون مخيّلة والدة الإنسان مريضة؟

فخيال من يستطيع أن يذهب بعيداً كلّ هذا البعد؟

غير معقول!

- ألا ترين هؤلاء الشبان الذين يحرسون المرمى، قالت لها خالتي، كلّ حارس منهم فيه من الفحولة ما يكفي لجمعيّة من النساء الشابات بكاملها (من أين تأتي خالتي بهذا الكلام؟)

عندما كنت أصل في حلمي إلى هذه النقطة، أي إلى مجيء المرأة التي التقيتها في الطريق إلى البيت، كنت أفيق من غيبوبتي الجميلة على هذه المسألة التي كانت تقلق وجداني: البيت! كان حلمي أن يكون لي بيت لي وحدي، أدخل إليه حين أشاء، وأخرج منه حين أشاء، وأستقبل فيه من أشاء. والآن وقد تحقّق الحلم هجرتني زوجتي. لكنّ منزلي ما زال لي وعقد الإيجار باسمي، والحلم الذي كنت أحلمه، بعدما بدأت أشعر أنني تأخّرت في الزواج، ما زال حلمي الذي يراودني أكثر من كلّ شيء آخر، كلّما استسلمت من تعب، أو من ضجر، أو من يأس. لكن هل لهذا الحلم أن يتحقّق؟ مستحيل! ومع ذلك شغلني كثيراً أين ستذهب ميريل ستريب، بعدما خرجت من بيتها تاركة زوجها وولدها، وفكّرت كثيراً أثناء الدعاية أين ستذهب الآن سيّدة مثلها، تركت بيتها لأنها لم تعد تتحمّل إهمال زوجها لها، وهي على ما يبدو، لم تتخذ هذه الخطوة إلا بعد أن أعيتْها الحيلة، خصوصاً أنها بهذا الجمال وبهذا الحنان وبهذه النعومة، فمن يراها

تنحني هذه الانحناءة على ابنها، وتقبّله هذه القبلة الطاهرة ينفطر قلبه، ولا يصدّق أنها تترك بيتها لولا أن طفح معها الكيل.

واضح!

الفرق كبير بين النسيج الذي تتركّب منه نفسُها والنسيج الذي تتركّب منه نفس زوجها، ومستواها أعلى بكثير من مستواه، فهو حين يتكلّم يبدو كأنه مجنون. أنا أفهم أن يحزن الأهل حين يلدون البنات. ربّك عليم على من يقعنَ! لا أتمنّى أن يكون لي بنت، لا لأنني لا أحب البنات، أو لأنني تقليديّ ومحافظ، بل تجنّباً لمشاكل من هذا النوع. ثمّ إنّ زوجها لا يشبه هؤلاء الممثلين الشقر، الذين إذا ما ابتسموا لمعت أسنانهم، وتطايرت من أفواههم شهب الضوء والنجوم.

فهل تذهب ميريل ستريب عند أهلها أيضاً كما فعلت زوجتي؟

زوجتي مبسوطة عند أهلها كما يبدو لي وكما تبلغني الأخبار.

كيف تركت ميريل ستريب ابنها لوالده، لماذا لم تأخذه معها؟ كان يجب أن تأخذه معها. كان ذلك أفضل لها. لكنها ربما لو أخذته معها لما كان تركها تذهب. أو ربما، ولماذا أستبعد هذه الفرضيّة، ربما هي ذاهبة عند عشيقها، الذي لا يريد أن يسمع بولدها الذي من زوجها، فمن يدري ماذا تخبئ المرأة! وهناك في تلك البلدان لا أحد يستطيع أن يمنع المرأة من هجر زوجها والإقامة عند رجل آخر، فإنّ هذا يعتبرونه هناك من حقّها. أتمنّى ألا تكون ذاهبةً عند عشيقها، وأتمنّى في الحقيقة، وفي نهاية المطاف، أن تعود إلى بيتها وإلى ابنها

وإلى عائلتها. صحيح أنّ زوجها ليس من مقامها، وهي قادرة على تحصيل زوج أحسن منه بألف مرّة ومرّة، حتى ولو كانت مطلقة ومعها ولد، لكنّ الخطأ قد حصل، وقد قبلت بالزواج وتزوّجته وأنجبت منه فوق كلّ ذلك، فلا يمكن أن تتمّ معالجة الأمر الآن بترك الولد لأبيه على هذا الشكل. فالخطأ لا يصلح بخطأ. وأقول ذلك، وأنا في أعماق أعماقي، أتمنّى ألا تعود إليه، فهو ليس الرجل المناسب لها بتاتاً. لكن لا مفرّ.

أعتقد أنه لا مفرّ من أن تعود لزوجها، لكن قبل ذلك يجب أن تربيه، حتى يدرك من هي بالضبط، وحتى يعرف ما حدوده التي عليه ألا يتخطّاها، وحتى يفهم أنها بقيت معه لا لسواد عينيه، بل لأنها تحترم نفسها، ولأنها لا شيء أغلى عندها من سعادة ابنها، ثمرة أحشائها. ولأنها متى اتخذت قراراً تلتزم به مهما كلّفها الأمر.

والله لو كان عندي امرأة مثلها لما أخطأتُ معها بفاصلة.

أعتقد أنها في الأخير هذا ما يجب أن تقوم به. ولكن من الآن وحتى ذلك الحين، عليها أن تصبر حتى تمتحن حقيقة نواياه، وحتى يحترق ببُعدها عنه، ويعترف لها بخطئه، ويعلن عن توبته النهائيّة التي لا عودة عنها. وهذا ما كنت أعتقد أن زوجتي تقوم به، رغم أنها ليست ميريل ستريب، ولا أنا داستن هوفمان لحسن حظّي.

كنت أتوقّع بعد يومين من غيابها أن تقبل بوجهة نظري، وبشروحي للمسألة، بل وباعتذاري، وأن تعود إلى البيت، إلى بيتها، فترضى عن نفسها، وترضى عنها الناس بل وترضى عنها ملائكة السماء.

أن تعود، وأن تنطلق معي في علاقة من جديد.

أسبوع! شهر! شهران!

فإذا كانت تريد أن تربّيني فقد تربّيت، فقد طال بقاؤها خارج البيت عند والدتها أكثر مما يمكن لزوج أن يتحمّل. وهذا الوقت يكفي حتى أتعلّم الدرس، وهذا الوقت يكفي حتى يروق خاطرها، ثم إنني وعدتها بأنه من الآن وصاعداً لن يكون إلا ما تريد! هذا على افتراض أنّ ما حدث قد حدث، أي على افتراض أنني حاولت شيئاً مع هذه الفتاة، لكنني أنكرتُ وقلتُ لها إنّ شيئاً لم يحدث، فما حجّتها الدامغة إذن حتى لا تعود عن قرارها بعدم العودة إلى بيتها، وهي ما زالت عروساً، وهو قرار اتّخذتْه تحت تأثير الغضب؟

عندما أدركتُ أن هذا الفيلم هو "كرامر ضدّ كرامر" بالذات، غيّرتُ المحطّة بشكل آلي تلقائيّ ودون انتباه، حتى أمنع زوجتي من أن تراه، فهي تحبّ هذه الأفلام، وتحبّ هذه القصص وتحبّ هذه الأخبار.

فور شرائنا التلفزيون سنشترك في الكابل، كانت تقول، ليكون عندنا عشرات المحطّات، ليكون عندنا محطّات أكثر مما عند أهلي. قالت ذلك لأن مكاتب الاشتراك تقطع عدداً من القنوات الفاضحة، عن نوع معيّن من المشتركين كوالديها مثلاً، أما هي فلا تريد أن تُحرم من شيء، حتى من المحطات التي تعرض برامج وأفلاماً شديدة الفلتان. ولولا خجلها منّي كانت اشترت التلفزيون قبل البرّاد، بل قبل غرفة النوم، وبالتأكيد قبل غرفة النوم، لأنها كانت تنام أحياناً على كنبة في الصالون، لولا إلحاحي عليها بالانتقال إلى فراشنا،

ولولا تهديدي لها وتنبيهي إيّاها بعواقب هذا التصرّف.

- وما عاقبة هذا التصرّف؟ قالت لي مرّة. قلت لها خراب البيوت، فقالت أهي عمرانة؟

ومرّة أصرّت ونامت طوال الليل على الكنبة، وفي الصباح لبست ثيابها على عجَل وذهبت عند والدتها لتتابع نومها هناك. كانت تفعل ذلك لأقل شيء، لحجّة واهية، بسبب وبدون سبب، فتقاصص نفسها بأن تنام وحدها على كنبة، وتهجر فراشها حيث الحنان الذي كنتُ أغمرها به، والاهتمام الذي كنت أبديه لها. كملكة كنت أعاملها. وهذا ما فعلته أيضاً أوّل مرّة ولجتها بالكامل، أي فتحتها كما يقول الناس، بعد انتقالنا إلى شقتنا الجديدة، وبعد صبر أيّام كاملة بلياليها. وكانت مفاجأة لي كبرى وصدمة لم أتوقّعها، كنت أحدّثها حديث العريس للعروس، فقد كانت تلك ليلتنا الحقيقيّة الأولى، كرجل وامرأة بكلّ معنى الكلمة، وكنّا نتبادل ما نعرفه من أخبار عن الليالي الأُول للزواج، وعن البكارة وأهمّيتها، وكيف أنّ شعوباً لا تعطي أهمية لها، بخلافنا نحن الذين نفضّل الفتاة بطبعنا بكراً لا ثيّباً، لأنّ البكر عذراء الذاكرة بمعنى ما، مما لا يحملها على تقسيم هواها بين زوجها ورجل آخر. والبنت التي تخرج أحياناً على عاداتنا بسبب الطيش، أو بسبب آخر، وتخسر بكارتها، تعمد إلى رتق ما تمزّق منها، لتستطيع الزواج، وإلا فلا يرضى بها أحد. لكنها اعترضت على ذلك قائلةً، إنّ فتيات كثيرات أصبحن في هذه الأيّام يرفضن هذا، ولا يقبَلن بالزواج من رجل لا يقبل بهن كما هنّ. قلت متعجّباً: كثيرات؟ قالت: نسبيّاً!

قلت لها إنّ هذا أمر نادر لا نجده إلا في بعض الأوساط، وهو لذلك أمر لا يُعتبر.

كان هذا الحديث ونحن في الفراش، قبل ولوجي إيّاها بقليل، وقبل أن أفتحها وأخرق سترها وأفضّ بكارتها. قالت لي وأنا منهمك لا أدري بماذا أبدأ وبماذا أنتهي: انتبه! لا تتصرّف معي كأني سيّارة مسروقة لا أمل في تسجيلها قانونيّاً. خذني بالهداوة، قالت. تصرّف معي كأنّي سيّارة اشتريتها بالتقسيط، فأحببت منها أن ترشدني إلى ما تحبّه نفسها، وعملتُ بما تقوله احتراماً لمشاعرها، ورغبة صادقة منّي في أن تشاركني هذه اللذّة النادرة التي تحدث مرّة واحدة في العمر، لي ولها. لكنها رغم كلّ الإرادة الطيّبة التي أبديتُها، كانت تتألم كثيراً جدّاً كلّما حاولتُ الولوج، مما يُضطرّني إلى التراجع وإعادة المحاولة من جديد.

لم تكن في الحقيقة تريد أن أنتهكها بهذه السرعة. كانت تريد تأجيل الجُماع الكامل إلى وقت لاحق، أسبوعاً أو أسبوعين وربما أكثر، نكتفي أثناءها بالمداعبة وحسب، حتّى نكون أتممنا استعدادنا النفسيّ، وأحياناً كانت تقول أيضاً استعدادنا الجسديّ. وحين كنت أبدي دهشتي لقولها "الجسديّ" كانت تجيب بأن الأشياء مرتبطة ببعضها. لكن إلى متى التأجيل؟ فمنذ أيّام وهي تطلب منّي التريّث، ومنذ أيّام أنصاع لرغبتها وأقبل بالانتظار، ولكن إلى متى؟ وبَعدين؟

و لم أكن قد استوعبت بعد أنّ حُبّ التأجيل من طبعها. فهي قبل ذلك أرادت تأجيل الزواج، فأجّلناه، ثمّ أرادت تأجيله أسابيع أخرى،

لكنني رفضت رفضاً قاطعاً، لأنّ كل شيء كان جاهزاً فما الداعي إذن؟ استأجرنا الشقّة وبدأنا بفرشها فماذا ينقصنا بعد؟ وعمري خمس وثلاثون سنة وعمرها ثلاثون فماذا ننتظر؟ وأنا منذ سنوات لا أستطيع الاستقرار على رأي، ولا أستطيع تعيين فتاة بعينها أسعى إليها، وقد يئست من البحث عن واحدة تناسبني وأناسبها، والآن وقد تمّ هذا، وقرّرت الزواج وبدأت أحلم بولد أكحّل عينيّ برؤيته بعد تسعة أشهر، فلن أتراجع. ثم إنّ مرحلة الخصوبة عندها قاربت على الانتهاء، فماذا تريد أن تنتظر بعد؟

- ولِمَ العجلة؟

هذا كان جوابها الوحيد ولا جواب آخر لديها. كان يضيق صدري بهذه الحجّة، أو على الأصحّ بهذه "اللاحجة" التي كانت تعيطها، وكنت أغضب من موقفها هذا الغريب العجيب، الذي لم يكن يُقنع أحداً، ولا حتى والدتها التي كانت دائماً إلى جانبها، ما عدا في هذا الأمر. لم تخالفها والدتها في شيء على الإطلاق إلا في هذا! لكنها ليتها وافقتها فيه! ليتها شجّعتها على تأجيل الزواج، فربما كان فرَط، وربما كنّا لم نصل إلى ما وصلنا إليه.

- اتكلي على الله يا ابنتي، هذه أمور لا تؤجّل! كانت تقول لها والدتها بنبرة صارمة. وذلك رغم أنّ والدتها امرأة شديدة الانفتاح تتقبّل الجديد بسعة صدر بل بحرقة أحياناً، ورغم أنها بلغت من العمر سبعين عاماً فهي ما زالت تحبّ الحياة والسهر والتدخين. تدخّن كثيراً وتشرب البيرة! وتحبّ صباح! نعم تحبّ صباح، لكن بشكل خاص

جداً، فعندما تسمع مثلاً أن صباح هذا المساء على التلفزيون، تَعدُ نفسها بالسهر وتُعِدُّ نفسها. وتضحك من كلّ قبلها. وتبكي من الضحك. بل تغنّجها تقول "الصبّوحة"، وترقصُ وتضطرب في كنبتها عندما تغنّي صباح تلك الأغنية التي فيها كلمة "صبّوحة"، فتروح تضرب بيديها على فخذيها، وترفع فستانها وتخفضه، كأنها في لهيب الصيف في غرفة وحدها تُهَوّي جسمها لتبَوْرِده!

لقد تزوّجنا وانتقلنا إلى بيتنا بإصرار منّي وبضغط من والدتها. أمّا خالتي فبقيت صامتة لا تُعطي رأياً في الموضوع، مع أنّ زوجتي لم تنقطع عن زيارتها يوميّاً في تلك الفترة أيضاً. غريب!

ثمّ اقتنعتْ بتعيين موعد الزواج أخيراً بدون أن يجبرها أحد، وكنت صريحاً معها إلى أقصى درجات الصراحة إذ طلبت منها أن تعلن ذلك إذا كانت لا تريد الزواج في حضور والديها ووالدتي وخالتي والأقرباء، فأجابت بوضوح وبشكل قاطع أنها تريد الزواج، لكنها أحياناً حين كنّا نضهر معاً وحدنا، كانت تطلب منّي ألا أستعجل في الموضوع. غريب كيف أنها كانت تشعر بالقوّة ونحن معاً وحدنا، كانت تقوى عليّ حين تستفرد بي، لذلك كنت أسعى دائماً إلى أن يكون التصريح بالتزامها بأمر مهمّ، أمام الأقرباء جميعاً، وفي حضور والدتها بشكل خاص، حتى يصعب عليها في ما بعد أن تتراجع. وكنتُ أحرجها أحياناً لأخرجها عن رأي تبطنه، كالولد سريعاً مثلاً، فقد كانت تريد أن تؤجّل الحبل "إلى حينه"، وكنت أتعمّد فتح هذه الأحاديث علناً، حتى إذا ما صرّحت برأيها نهرها الجميع!

– ومتى يكون حينه؟ كانوا يقولون لها في جوقة واحدة.

وبالعودة إلى استعدادها النفسيّ والجسديّ، فقد صبرتُ أياماً طوالاً حتّى يكتمل استعدادها هذا، استشرت أثناءها رجال دين ثقةً، وآخرين استدللت عليهم فنصحوني بالروية والحزم معاً، ونصحوني باستعمال اللسان للكلام ولغير الكلام، وباستعمال اليدين والرقّة واللين والإصرار وعدم التراجع.

وأخيراً قلت لها إنني لن أنتظر لحظة بعد الآن، وبعدما تحدّثنا في الفراش طويلاً، وكان كلّ كلامنا منصبّاً على البكارة وما إليها، كنت أثناءها أداعبها كما تُداعَب شابّةٌ عروس، آخذاً بالاعتبار ما نُصحتُ به أيضاً، وفي لحظة بلغتْ فيها رغبتي مبلغاً لا يمكن احتماله، وبعد عدّة محاولات كنت أتراجع إثرها بسبب وجعها وصراخها، ذهبتُ فيها كالطلقة غير آبه بأسنانها تنغرز في كتفي.

لقد نزف الدم منّي ونزف منها، لكنّه نزف منها بغزارة. فبكت وتكوّرت وخبّأت نفسها تحت الغطاء، بينما أنا أمسح الدمَ الذي عليّ بمحارم الكلينكس الموضوعة إلى جانب التخت، ثم نهضتُ إلى الحمّام تناولت المنشفة وعدت أمسح عنها الدم، لكنها تناولتها منّي وخبّأت من جديد ما كشفتُه منها. وحين سألتني بعدما هدأت لماذا مسحت الدم عنها بالمنشفة وليس بالكلينكس، لم أبح لها بالسبب الحقيقي بل قلت لها إنّ ذلك أنظف.

تأملت بقايا الدم عليّ وأنا أغتسل في الحمّام في ما بعد، لأن غرفة نومنا حيث كنا كانت معتمة، فالوقت كان الغروب والشباك مغلقاً

بالتأكيد، وتأمّلتُ المنشفة التي علّقتُها في مكانها من جديد، بدل أن أضعها في سلّة الغسيل، بدون أن أنتبه. وعدت إلى الغرفة وكانت ما زالت تبكي، فحاولتُ مراضاتها وطمأنتها وتطييب خاطرها، إلى أن هدأت، وعدنا من جديد وبدون قرار مسبق من أي منّا، إلى الحديث عن البكارة وما إليها، وفي لحظة ما من حديثنا، أخبرتُها ما جرى لإحدى الفتيات التي كانت تضهر مع أحد أصدقائي، الذي فتحها و لم يشأ أن يتزوّجها لأنها قبلت أن يفعل بها ذلك، كما باح لي، فالمرأة التي ستكون زوجته وأمّ أولاده، يجب أن تكون كاملة مكتملة قبل الزواج، و لم يمتزج بدمها إلا دمه، وكانت هذه الفتاة تحبه، وكانت على استعداد أن تعطيه كل ما تملك شرط أن تنال حبّه ورضاه، وكان يخبرني أنه أتى على بكارتها على دفعات، بخلاف ما قام به في ما بعد مع زوجته ليلة العرس، حيث انقضّ عليها انقضاض الوحش المفترس، انتهكها انتهاكاً ومزّق سترها تمزيقاً، وكان الدم يسيل منها وكانت ترجوه مع ذلك، أو بسبب ذلك، أن يبقى فيها وألا يخرج. هكذا يجب أن تكون المرّة الأولى مع زوجتك، يجب أن تمزّقها وأن تنتهكها، وأن تستبيحها، لكن بفروسيّة ونبل وشهامة لا بهمجيّة وبربريّة. تمهّل إذن وتأنّى مع فتاته، وأنجز العمليّة بعد عدّة محاولات، كلَّ مرّة دفعة أعمق، بحيث إنها لم تشعر بألم كبير، وبحيث إنه كان يستطيع الإنكار إذا ما عاتبته على ذلك، لكنها لم تعاتبه إطلاقاً و لم تضطرّه إلى الإنكار، بل هجرته بكل بساطة بعد أن قطعت الأمل منه تماماً، وبعدما استسلمت له وأعطته أغلى ما تملك. لكنّ المشكلة وقعت عندما طلب يدَها شاب، كانت تعرفه معرفة صداقة من زمان،

فأراد الزواج بها بسرعة فوافقت. لكنها لم تتصوّر أنّ السرعة تعني فوراً في كل شيء، فاضطرت إلى الذهاب بسرعة إلى أحد الأطباء، بدون أن تخبر أحداً، حتى أقرب صديقاتها إليها، فابتزّها هذا الطبيب بعدما اكتشف مدى حاجتها للرتق، وتزوّجت بعد عمليّة إعادة البكارة بأيّام، وكان الطبيب طلب منها ألا تتعاطى الجنس بشكله الكامل قبل أسبوعين، على الأقل، والأفضل قبل ثلاثة أسابيع، لكن الرياح لا تجري دائماً بما تشتهي السفن، فكان هذا الرجل لا يمكنه أن يدرك لماذا تريد زوجته أن ينتظر هذا الانتظار، وكانت هي عديمة الحيلة لا تملك حجّة للتأجيل، فتركته يفعل بها ما يشاء، رغم علمها بأنها مهدّدة بالنزف والالتهاب، وبالفعل نزفت نزفاً شديداً استوجب نقلها إلى المستشفى، وكان من حسن حظّها أن استطاعت الاتصال بالطبيب ذاته الذي أجرى لها العمليّة، وقد حسبت لذلك وتوقّعته ولم تبخل عليه بطلب، فاهتمّ بها وراعى وضعها وكان شديد اللياقة. لكن المهم في الموضوع ليس هنا، بل المهم هو أن هذا الرجل بعدما فضّ بكارة عروسه، لاحظ على ذَكَره خيطاً صغيراً أثار ريبته، فسألها عنه سؤال من تكاد تشتعل فيه النار، فأجابت ببراءة الجاهل غير المكترث، أنه ربما كان شيئاً من ثيابها أو من ثيابه، فماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ فتأمّل زوجها الخيط بعدما رفعه بإصبعه إلى مستوى عينيه وقرّبه منهما ثم رماه. أمّا هي فكاد يُغمى عليها من الخوف! انقطع قلبها من الخوف فنسيت كل وجعها إلى حين.

لكنّ زوجها كان مسروراً جداً برؤية الدم عليه وعليها، فضمّها ضمّاً جميلاً، وشكر الله على رضاه عنه، وأحبّت منه ذلك، وكان يمسح

بنفسه الدم عنها وهو يديم النظر فيه بغبطة، وفي تلك اللحظة فهمت معنى أن تخصَّ المرأةُ زوجَها بأوّل ولوج، إنه هديّة ثمينة!

- ولَمَ تخبرني بذلك الآن؟ قالت زوجتي! ففاجأتني بسؤالها، واضطَربتُ، وأحسّت أني اضطربت، لكنني لم أجبها، ثم ترددتُ قليلاً في ما أقول، قبل أن أسألها السؤال الذي "وَلَّعَ" غضبَها:

- "انوجَعتِ كتير؟"

ولم أفهم أن يكون هذا السؤال سبباً لغضبها، فبماذا إذن يتحدّث عروسان ما زالا متزوّجين لأول مرّة؟ فهل السؤال عن أهمّ شيء ممكن أن يحدث للمرأة في حياتها، أي فقدانها بكارتها، خارج عن الموضوع؟ وأيُّ سؤال هو إذن في صُلب الموضوع؟ إنه لمن واجبي أن أسألها عن ذلك، حتّى أخفّف عنها الألم الذي كنت مسبّباً له بنفسي! فهذا السؤال ليس في صلب الموضوع وحسب، بل إنه الموضوع بالذات.

لكنها استوعبتْ غضبها، ونجحتْ على ما بدا لي وقتها، في أن تمنع نفسها من الكلام لئلا تقول ما لا تريد قوله، رغم استمرار الألم والنزف. وكانت هذه إشارة طيّبة إلى أنها امرأة لا شيء عندها أغلى وأثمن من الحفاظ على زواجها.

أدارت وجهها عنّي فقط، هذا كلّ ما فعلَتْه.

لكن لماذا؟ غريب!

كنت أظنّ أننا سنتكلم عن هذا الموضوع طويلاً وبلذّة لا توصف.

فهل أحسّت بقلقي فغضِبتْ؟ وبأيّ حاسة أدركت أنني قلق، وقد أَسَلتُ منها الدم صراحة، وهذا هو مطلوبي، وقد تألمتْ بالفعل وأنا أُنجز ذلك. لكنها تألّمت كثيراً.

عندما كنّا، أنا ورفاقي، في أول شبابنا، لم يكن يشغلنا أمر البكارة بل كان يثيرنا وحسب. أنا في الحقيقة، وحتى هذا العمر الذي أنا فيه الآن، لا أعرف فتاةً مفتوحة قبل الزواج، إلا في القصص والروايات التي كانت تنتهي دائماً بالقتل لغسل الشرف، أو في الجرائد، أو في السينما، وخصوصاً في السينما. لم نكن نناقش هذا الموضوع عندما كنّا في أوّل طلعتنا، شباباً، كانت البكارة حتى الزواج أساساً ينبني عليه الكلام، دون حاجة للتذكير به، كان كالتنفّس أمراً طبيعيّاً. مرّةً واحدةً أثير هذا الموضوع صراحة، كنّا أثناءها في سيارة نادرة تسير على الطاقة الكهربائية، كانت الوحيدة لا شكّ في بيروت، سرق رفيقنا مفاتيحها من جيب والده الذي يهوى البيئة، وكنّا متوقفين على الضوء الأحمر، فاجتازت الطريق أمامنا فتاة جميلة تلبس ثياباً أحرجتنا جميعاً، فقال رفيقنا السائق: هذه أَغتصبها إذا التقيت بها في مكان مناسب، فأجبناه: لا يعود يتزوّجها أحد، لكنني استدركتُ وقلت على سبيل المزاح والمبالغة والمماشاة: في هذه الأيّام صارت البكارة شيئاً من الماضي! فقال هو ذاته: لا يمكن أن أتزوّج فتاة ليست بكراً، "بيطلعلي أفتح واحدة!" هذا حقّ لي!

– وأنا أيضاً! قلت في نفسي، وكان يمكن بكلّ بساطة أن أقولها في العلن.

في تلك الليلة التاريخيّة بالنسبة إلينا نحن الاثنين، أمضت الليل على كنبة في الصالون، وبين فخذيها مناشف صغيرة، وقطع من القطن الطبّي، ومحارم ورق بينها ورقة يانصيب مرميّة على الأرض لم تلمّها، مع أنها هي التي كانت تطلب منّي دائماً ألا أرمي واحدة منها، لأنها كانت تأمل في ربح سيّارة فولكس فاكن بولو، موديل الألفين. وكان إلى جانبها أدوية أيضاً ومراهم. لا شك أنها كانت تتوقّع ما حصل، فالفتيات يحسبن لهذه الليلة. أعتقد أنها سألت والدتها بالتلفون عمّا يجب فعله، وربما كانت والدتها طلبت نصيحة من أحد ما، صديقة ممرّضة أو صيدليّة. وفي مبادرة منّي لمشاركتها ألمها الذي كان لا بدّ لي من أن أسبّبه لها، بل كان ذلك واجباً عليّ شرعاً وإلى حدّ ما قانوناً، أمضيت الليل قبالتها على كنبة، رغم إلحاحها عليّ بأن أنام في الفراش، ورغم قولها لي إنها تأخذ حرّيتها أكثر لو تركتها وحدها تعتني بأمورها، لكنني أصررت على البقاء معها. يومها تمنّيت بالفعل أن يكون لدينا تلفزيون، وفكرت في نفسي أنه ربما كان معها حق بأن التلفزيون شيء ضروريّ جداً، يساوي في ضرورته الأشياء الأخرى. وفكّرت في نفسي أيضاً، أنه ربما كان هناك مشكلة في علاقتي بزوجتي يجب أن أعترف بها، وهذه المشكلة تكمن في أنّه يتبيّن لي أحياناً كثيرة، لكن في ما بعد، أنّ زوجتي كانت على حق، حيث أكون مقتنعاً اقتناعاً تامّاً بأنها ليست على حقّ، فالأحداث أحياناً كثيرة هي التي تعطيها الحق، كما في هذه الليلة، فلو كان عندنا تلفزيون لما كنّا في هذه الحالة التي نحن فيها، "عبقة!" ولكانت ليلتنا أجمل. كنّا تسلّينا عمّا نحن فيه على الأقلّ.

هناك مشكلة عليّ ألا أنكر وجودها.

وفي الصباح ذهبتْ عند والدتها، حيث أمضت النهار بكامله، ولم تعد إلا بعد أن ذهبتُ بنفسي إلى هناك، ووسّطت والدتها التي ترددت قبل أن تستجيب لي، وتطلب منها أن تعود معي. وظننت في حينها أنّ تردّد الوالدة كان من قبيل التكتيك، أي لتظهر لابنتها تفهّماً لرفضها العودة إلى البيت. وبهذه الطريقة أيضاً فسّرت قولها لي على سبيل اللوم: أنتم – تقصد الرجال – تريدون الحصول دائماً على كلّ ما تريدون فوراً، الرجل أنانيّ بطبعه. فأجبتها أنّ هناك أشياء لا بد من إتمامها فقالت: لا تعلّمني ما أعرفه أكثر منك!

– "يا خسارة!"

لماذا تندبين حظّك؟ قلت لها. قولي لي من فضلك، أحبّ أن أعرف من كلّ قلبي ما الخطأ الذي ارتكبتُه؟ فعادت وكرّرت عليّ ما قالته لي ابنتها في الأمس: لا تعامل زوجتك كسيّارة مسروقة لا أمل في تسجيلها قانونيّاً، بل عاملها كسيّارة تدفع ثمنها بالتقسيط!

يبدو أن زوجتي ورثت عن والدتها هذا النوع من التشابيه الغريبة العجيبة، ولم تحصل عليه بجهودها المنفردة كما كنت أعتقد.

وقت طويل مضى ولم تعد إلى بيتها رغم كل المحاولات التي قمت بها لإقناعها. وكانت خلال هذا الوقت ترفض الكلام معي، وتطلب من والدتها أن تصرفني، ولم تكن تقبل أن تكلّمني إلا بعد إلحاح مني

يجعلني أخجل من نفسي. "مش موجودا" أو "نائمةا" أو ما شابه.

لكنها هذه المرّة هي التي اتصلت!

رنْ رنْ رنْ! رنَّ الهاتف بشكل طبيعيّ جدّاً، وقمت أردّ بشكل طبيعيّ جداً، وبدون أن أتساءل حتّى عمّن يكون المتلفِن.

– آلو!

كانت هي بنفسها!

اسمع! قالت لي. اذهب وتدبّر أمرك مع جيرانك الذين حاولت اغتصاب ابنتهم، فهم لم يتوقّفوا عن الاتصال بي يوميّاً، وتهديدي بأبشع العواقب، إن لم تسلّم نفسك للدرك، وتعترف بما فعلته بأختهم. اسمع: والدي رجل مسنّ، وإخوتي جميعهم مسافرون، لذلك اضطررت إلى الاستعانة بعمّي الذي ذهب لعندهم مباشرة، ونقل إليهم أنّ أيّ علاقة لم تعد تربطني بك، وأنّهم لذلك عليهم تدبّر أمورهم معك وحدك.

– فهمت؟

قلت لها فهمت، وسأتدبّر أمري وحدي معهم، ولكن قولي ماذا قصدتِ بأنه لم تعد تربطك علاقة بي؟ قالت أنا طلبت الطلاق، وكلّفتَ محامياً بالأمر، وسيبلغك هذا رسميّاً بين يوم وآخر.

كل هذا يجري وأنا غافل عنه، أنتظر كالأهبل أن تعود صاغرة ذليلة.

فليكن واضحاً منذ الآن، قالت، أنا لن أعود إليك، وهذا قرار كنت

سأتخذه حتى لو لم تحصل حادثة الاغتصاب. فهمت؟ أنت في طريقك وأنا في طريقي. قلت لها والطفل؟ فسكتت و لم تجب بشيء! لكنها بعد لحظات قالت: مفهوم؟ قلت لها نعم مفهوم ولكن أجيبيني ماذا ستفعلين بالطفل، فسكتت مرّة أخرى ثم بعد تردّد قالت: أيّ طفل؟

يا إلهي! أيّ طفل قالت!

كنت، قبل أن تثير موضوع الطلاق، مطمئناً إلى عودتها عاجلاً أم آجلاً، لأنها كانت حبلى. كنت مقتنعاً بأنها لن تسمح لنفسها بأن تمضي فترة حبلها في بيت أهلها عند والدتها، وأن تلد هناك، فهذا غير معقول. يبدو أنها كذبت ونفت وأخفت الأمر على الجميع، لكن إلى متى؟ فلن يبقى بطنها أملس مستقيماً كما تحبّه أن يكون، بل سيكبر وسيستدير ولن تستطيع أن تبقى منكِرةً إلى الأبد.

بل ستعود.

أنا مطمئنّ من هذه الناحية ومنتظر بلا ملل.

وسيكون المولود لا شك صبيّاً، لأنني أعرف الطريقة، فقد قرأت في كتاب علميّ رصين، أن المنيّ مؤلف من نوعين من الحيوانات، الذكور والإناث، وأنّ الإناث أطول عمراً من الذكور، لكن الذكور أسرع في الوصول إلى بويضة المرأة، لذلك كنت دائماً وأنا أُنزل أرفع حوضها إليّ، ما استطعت، وأغرز نفسي فيها إلى أعمق ما استطعت، لتقرب المسافة ما أمكن بين الرأس والبويضة، فيصل الحيوان الذكر إلى البويضة قبل أن يموت وتتخطّاه الأنثى الطويلة العمر. هذه طريقة

ناجحة، وسيكون المولود صبيّاً بإذن الله. وكنت أسكت حين تسألني لماذا ترفع أسفلي هكذا، كأنّك تريد أن تسكب فيَّ شيئاً (أسفلي! كانت تقول، يا للرومنسيّة!) لم أبح لها بسرّي إطلاقاً، ولست نادماً، خصوصاً أنها كانت تصرّح بأنه لا فرق بالنسبة إليها إن كان المولود ذكراً أم أنثى، وأحياناً كنت أحسّ أنها تفضّل الأنثى. "ولِمَ لا أنثى؟" كانت تقول، "ألا أُعجبك؟ أنسيت أنني أنثى؟ ألا يليق بي الربيع، والذهب ألا "يغلا" على صدري؟" تريد أن ترى نفسك كم أنت سعيد معي، تعالَ، انظر كيف تفترسني افتراساً، وجرّتني مرة إلى المرآة، وجرّتني مرة أخرى وقالت لي أنظر إلى نفسك ألا تشبه القرد؟ ولم أفهم ما إذا كانت تقصد أنني أشبه القرد لكوني رجلاً يفضّل الأولاد الذكور، أم لكوني مُشعِراً يكسوني الشعر بكثافة في كلّ مكان من جسمي، لأن حضرتها تفضّل فحول هوليود الشقر أصحاب الأجساد الملساء الخالية من كلّ وبرة أو شعرة، لأننا نحن سكّان الحوض الشرقي للبحر المتوسط قد عتقنا. تفاجئني هذه المرأة تدهشني، تضعضعني، تجعلني أضطرب، وأنا أحبّ المرأة الخجول التي تحلو بالحياء، لكنها رغم كلّ شيء تثيرني، وأحبّ أن أمضي الأربع والعشرين ساعة معها في الفراش، لأنني لا أشعر أنها لي إلا وأنا فيها، وحتى هناك، أشعر أنها تفلت من بيدي يديّ فلا أستطيع القبض عليها، كالزئبق، أو كالحنكليس النهريّ الذي يحتاج إلى حلم كبير وحيلة حتى يثبت بين قبضتي يديك.

- ما تلفنت اليوم للماما!

تطلق عليّ عبارة من هذا النوع وأنا فيها، مستغرق فيها، غافل أنّي

ولدت ذات يوم وأني من عابري هذا الوجود، لشدة ما أنا سعيد، فأقول لها وقد أعادني كلامها من تلك الدنيا "مش مبسوطة؟" فتقول "بلى!" وتضيف.

نعم وتضيف!

وتضيف بعد أن تقول لي "بلى!": "لماذا تسألني هذا السؤال!"

وأجيبها.

وأجبتها مرّة بأنها لو كانت مبسوطة، لما شرد فكرها هذا الشرود، ولما تذكرت فجأةً أنها لم تتلفن إلى والدتها، فقالت بل أنا "كموتير المازوت" يأخذ وقته حتى يحمى!

وفي بلادنا موتيران (مولّدان)، موتير المازوت وموتير البنزين، أما موتير المازوت فيلزمه وقت حتى يحمى ويصبح جاهزاً للعمل بكامل جهوزيّته، وأما موتير البنزين، فهو يحمى بسرعة لكنه ليس "ضيّين" كموتير المازوت، وهذا يعني بوضوحٍ أنني أنا أحمى بسرعة لكنني أبرد بسرعة، أيّ إنني أهتاج بسرعة وأنزل بسرعة، هذا ما أرادت أن توصله إليّ إذن. يعني أنا لا أبسطها. يعني أنها تعاني. يعني أنها من حقّها أن تفتّش عن حلّ آخر. فهي كائن يأتي إلى هذه الدنيا مرة واحدة لا مرتين، ويحق لها إذن أن تتمتّع بها، فلمَ تحرم نفسها منها؟ من أجل من؟ من أجلي؟ فلست أنا الرجل الذي تضحّي من أجله. ولست أنا من تضحّي من أجله خصوصاً بلذّتها، بحياتها.

من منهما الأميركيّة؟ هي أم ميريل ستريب؟ للغربيّات الصيت ولها

الفعل. هنّ يُمثّلنَ أفلاماً سينمائية ونحن نطبّق!

لم تقل لي عندما علمت أنها حبلت، كما تقول النساء لأزواجهن عندما يحبلن منهم، وكما قالت زوجة صديقي الأجنبية لزوجها. قالت له: أنا سعيدة أنني حبلت منك أنت! وسعيدة أني أحمل في أحشائي منك أنت! لكن زوجتي بنت البلد، وبنت ملّتي وديني لم تقل لي ذلك مرّة إطلاقاً، بل قالت لي حين لاحظت انقطاع عادتها إنني شرّير!

- شرّير!

لماذا أنا شرّير!

- انقطعت عادتي!

فنوّر وجهي، واقتربتُ منها لأغمرها امتناناً، لكنها استدارت وركضت إلى التلفون تخبر أمّها وهي تنفجر بالبكاء:

- ماما، انقطعت عادتي!

- (...)

- لا! لا! لا! ما هيك!

ثمّ التفتت إليّ وقالت: لماذا ترفض استعمال الكوندوم (تقصد الواقي الذكري)؟ أنا لا أستطيع استعمال الحبوب المانعة للحمل، لأسباب صحيّة!

يا إلهي!

ومن طلب منكِ ذلك؟ وكيف عرفت أنك لا تستطيعين لأسباب صحّية؟

نغّصت عليّ شعوري الجميل بالأبوّة لأوّل مرّة، لكنني رغم ذلك عشت لحظات من السعادة لم أشعر بمثلها في حياتي. لم أشعر في حياتي كلها بهذه السعادة. فما من شيء أجمل من أن تخبرك زوجتك أنّها حبلت منك. والمنطق يقضي بأن تكون زوجتك على هذه الدرجة من السعادة بل أكثر بكثير، فأنت الذي حبّلتها، وأنت الذي أخصبتها وحوّلتها إلى أمّ، إلى أجمل شيء في الوجود، إلى رمز للعطف والحنان والعطاء والتضحية. فهل أجمل وأبهى وأسمى من هذه القيم؟ وحاولتُ مراراً وتكراراً أن أفهم منها ما سبب انفجارها هكذا بالبكاء، كأنّ مصيبة حلّت بها، فكانت تعجز عن الإجابة وتكتفي بالقول إنه كان شعوراً غامضاً أقوى منها، أثار رغبتها في البكاء.

والحقيقة أنني وقتَها، أحببتُ منها ذلك نوعاً ما، لأنني اعتبرتُه صادراً عن براءة وبياض في النفس وطهارة، عن امرأة شابّة تجهل واقع الدنيا هذه، كما تجهله أحياناً فتيات كثيرات جديرات بكلّ احترام، وأحببت في الأمر أن أكون أنا سبيلها إلى دنيا الحقيقة والواقع، وأن أكون أنا دليلها فيها، فأُمسك بيدها وأقودها بين الممرات الصعبة والخطرة والموحلة والوسخة، بحيث تبقى محافظة على طهارة نفسها. أمّ أولادي!

لذلك فوجئت عندما سألتني عن الواقي الذكري!

عندما سألتني أوّل مرّة ألا تحبّ استعمال الكوندوم؟ قلت وما الكوندوم؟ قالت الواقي الذكي، فتعجبّت! لا بل صُدمت! أهي فعلاً لا تريد الإنجاب؟ ثم إنني فوجئت أن يكون الواقي الذكري، وهذا هو الأهم، من بين المفردات التي تستعملها ببساطة. لقد أُدخلت هذه العبارة إلى قاموس استعمالنا العادي، بواسطة بعض وسائل الإعلام بحجّة الوقاية من السيدا.

إنْ هي إلا ذريعة!

وعُرضت دعايات لبعض أنواعه في الطرقات والأماكن العامة بشكل صادم لعاداتنا وتقاليدنا. نحن مجتمع محافظ، بل ما زال الشرف عندنا قمية عليا، ففي كلّ يوم نقرأ في جرائدنا خبر مقتل فتاة غسلاً للعار، أيّ بسبب علاقتها برجل. أخوها الأصغر يقتلها إن لم يقتلها أخوها الأكبر، ويقتلها أبوها أيضاً، ويقتلها ابنها إن كان لها ابن، وأمس فقط قرأنا أن أخاً قتل أخته لأنها تزوجت "خطيفة" من رجل تحبّه، مخالفة بذلك إرادته بتزويجها من رجل آخر. وبعد كلّ هذا يعرضون على حوافي الطرقات الرئيسية على لوحات الدعاية، طرق الوقاية من السيدا، وفي رأسها استعمال الواقي الذكري، فكأنهم يقرّون بتحرير العملية الجنسية من رباط الزواج. أنا لست متزمّتاً لكنني مع الخفر والحياء، فهم يتصرّفون وكأن الأماكن العامة شيء آخر غير دواخل البيوت، ويعرضون في التلفزيونات دعايات لتشجيع استعمال الواقي الذكري (هذه التسمية!) عندما يكون الشريك غير أكيد من الشريكة. أنا لا أدري ما الفرق بين شاشة التلفزيون وغرف النوم؟ أو ما الفرق بين التلفزيون وغرف الجلوس

حيث تجتمع العائلة جميعها، ومعها الضيوف حسَنو النيَّة وسيّئوها. فبماذا يفكّر ضيف سيئ النيّة حين تملأ الشاشة دعاية تشجّع الرجال على استعمال الواقي الذكري، بينما تكون زوجتك إلى جانبك، أو ابنتك الناهد، أو أختك الأكبر منك التي تعرف أنت أنها تحلم برجل يُبهج حياتها، أو حتى أمك، فأمهات بلادنا يتزوّجن باكراً دون العشرين غالباً، فيصبحن جدّاتٍ ويبقين صبايا. في الجريدة الشهر الماضي قرأنا أن حفيداً قتل جَدته لأنها كانت على علاقة جنسية بشاب أكبر منه بقليل. بل تصوّر أنهنّ جميعهن حولك! فأنا في الحقيقة أقول بصراحة إنني أخجل حين يطالعني ذلك في حضور أخت أو أمّ أو قريبة، فلا أعود أعرف عندها أين أخبّئ نفسي، فأَزُمّ حتى يتضاءل جسمي ويحتلّ من المكان أقلَّ حجم ممكن. وتجيئني زوجتي لتسألني عن الواقي الذكري، بكل بساطة، وكأنها تسأل عن قنينة الماء! وحسناً أنها قالته بالإنكليزية أوّلاً، مما يعني أنها لا تعتبره شيئاً كالأشياء وكلمةً كالكمات.

ليس المهم بالنسبة إليّ أنّ زوجتي تعرف الاسم، لكن المهمّ أنها أوحت لي بأنها عالمة بهذه الطريقة في الوقاية، وكأنه عندها تقليد قديم وعاديّ لكثرة ما تستعمله.

وعندما سألتها لماذا تسأل عن الواقي الذكري وممّ تخاف، قالت: ما من شيء، ولكن حتى لا تسبقنا الأمور. ولم أستطع منع نفسي من سؤالها عمّا إذا كان سبق لها أن استعملته، فأجابتني بدهاء، أنّ الرجل هو الذي يستعمله لا المرأة، فقلت لها وما أدراكِ؟ فهزّت بكتفيها لتعني أنها حردت، وأنها "زهقت" مني، وأنها "طلع

دينها". فقلت لها أجيبيني! فبكت.

نعم!

يحقّ لزوجتي أن تبكي إذا سألتها، أنا زوجها، إذا كان سبق لها أن استعملت الواقي الذكري، لأنّ أحشاءها لا تعنيني بل تعني الجيران!

كيف علمتْ بالمناسبة أن الحبوب المانعة للحمل تضرّ بصحتها؟

– الأطباء! الأطباء! هل سمعتَ بوجود الأطباء؟

أنا في الحقيقة من زمان أحسست بأن الأمور لا تجري كما أحبّ وأشتهي، وبأنّي ربما أسأت الاختيار. ومن زمان بدأت أشعر بأنّ هذه المرأة ليست لي، وبأنها تخبّئ أشياء لا أستطيع القبول بها، لكنني كنت أغرق شيئاً فشيئاً، كلّ يوم قليلاً، بدون أن يكون في استطاعتي فعل شيء. وقد جاءني هذا الشعور في الحقيقة من أوّل لقاء تمّ بيننا، في مقهى الروضة، في اليوم التالي على تعارفنا عند خالتي، لكنني وقتها كنت عاجزاً عجزاً كلياً عن رؤية الأمور كيف تتّجه!

اتصلت بها على رقم هاتفها الخلوي، وقلت لها إنني منذ البارحة أفكّر فيها، لأنها (صراحةً!) لفتت نظري. وكنت في كلامي هذا صادقاً كلّ الصدق. وعرضت عليها أن نلتقي قريباً، وقلت لها إنني (أنا مش مثل غيري!) لا أداور ولا أخادع، بل مبدئي هو الصراحة، خصوصاً مع الفتيات اللواتي مثلكِ (بنت ناس!) والتقينا في مقهى الروضة. جاءت منفردةً بسيارتها الهوندا أكورد موديل الـ 83، وجئت بسيارتي الفولكسفاكن جيتّا موديل 92. وكان قصدي من

اختيار هذا المقهى بالذات، أن أبيّن لها عن حسن نيّتي وسلامة طويّتي، فهو مقهى مكشوف وواسع وفيه طاولات كثيرة، وليس فيه مكانٌ يمكن أن يختلي فيه اثنان وأن ينحجبا عن النظر، لكنّ وسعه وكثرة طاولاته يؤمّنان لزوّاره نوعاً من الشعور بالعزلة والحميميّة. لم أشأ أن آخذها إلى مقهى آخر من هذه المقاهي المنتشرة في بيروت، لأنني أردت من اللقاء الأوّل أن يكون واضحاً لها أنّ مشروعي ليس التسلية بل الجدّ، أيّ الزواج، وهذا موقف يزيد لا شكّ من احترامها لي، لأن الفتاة، خصوصاً إذا ما بلغت سنّاً معيّنةً، ثلاثين سنة (خالتي أخبرتني بعمرها)، فلا بدّ من أن يصبح الزواج هدفها الأوّل في الحياة، وهدفها الملحّ.

والخدمة في هذا المقهى الشديد الاتساع سريعة أحياناً، وهذه ليست مشكلة في حدّ ذاتها، لكنها كانت فاتحة لمشكلة بيننا، لأننا ما إن جلسنا، وقبل أن نتبادل بعض الكلمات من نوع هل أعجبكِ هذا المقهى، أو ماذا تحبين أن تشربي، حتّى حضر الغارسون، وقالت له قبل أن يسألنا عما نريد، بل قبل أن يبلغ الطاولة تماماً:

– "بيرة!"

فاجأتني!

وصراحةً ضعت، فلم أعد أعرف كيف عليّ أن أتصرّف، ولا أين أنظر ولا ما أقول. كانت حاسمة واثقة كالرجال الشباب الذين يمثّلون دعاية سجائر لوكي سترايك، أو كالنسوة الشابات اللواتي يسحقن الرجال الأكثر جمالاً وفحولةً حين يرغبن في شيء – قنينة عطر أو

مُسكِر – ويعزمنَ على بلوغه. ولم تنظر إليّ بعدما قالت ذلك، بل انصرفت بشكل طبيعي إلى جزدانها تُخرج منه علبة سجائر فرنسية، من نوع غولواز بدون فيلتر، كان يدخّن منه يساريو الستينيات وأوائل السبعينيات، ونادراً جداً ما أرى أحداً يدخّن منه اليوم. لكنها حسناً فعلت أنها لم تنظر إليّ بعدما قالت ذلك، لأنني لم أستطع أن أُخفي مفاجأتي.

أمّا أنا فقلتُ للغرسون:

– "بيبسي!"

وقلتها بشكل طبيعيّ جدّاً، حتى لا أبدو أنني "عمَ حطّلها على عينها"، لأنني رغم مفاجأتي التي لم تكن خالية في الحقيقة من شعورٍ بالأسى، وربما بالاستياء أيضاً، استوعبت الوضع بسرعة، فما نحن إلا في أوّل الطريق وكل شيء بإذن الله قابل للإصلاح والتغيير، وخصوصاً إذا كانت المرأة طيّبة المنشأ، تعرف أنَّ الرجل رأس المرأة، وأنّه قوّام عليها، وأن هذه سنّة الله في خلقه.

كنت أرغب في طلب البيرة، لكنني عدلت قصداً، حتى أتركها تشرب البيرة وحدها، بينما أنا أشرب البيبسي! حتى تدرك الخطأ من تلقاء نفسها. لكنها لم تنتبه إلى شيء، حتى عندما طلبتُ بيبسي، أو أنها ادّعت ذلك. وكأن الأمر بالنسبة إليها طبيعيّ جدّاً، رجل وامرأة على طاولة واحدة، الرجل يشرب البيبسي والمرأة تشرب البيرة، في مقهى الروضة الواقع إلى الجهة الغربية الجنوبية من بيروت. أنا أحبّ كثيراً أن أساعد المرأة على الخروج من القوقعة التي وضعتها فيها

التقاليد، لكنني في الوقت ذاته، أحبّ أن تبقى المرأة محافظة على الحدّ الأدنى، فلو استأذنتني على الأقلّ، لكنت أذنت لها بسرور، بل كنت شجّعتها، لكن أن تعمل ما في رأسها وكأنني خيال صحراء، فهذا ما لا أقبل به.

على كلّ، بعد هذه الحادثة العابرة، بدأنا حديثنا وكانت بداية لطيفةً ومنعشة. فالإنسان يؤخذ بالجوّ، ولا يمكن أن يدرك أن حادثاً صغيراً من هذا النوع هو الأساس والدائم والأصل. للأسف!

الغارسون الذي أحضر الطلبية، والذي لم يكن هو نفسه الذي سجّلها، وضع قنينة البيرة أمامي ووضع قنينة البيبسي أمامها ومضى، فنظرتْ إلى البيرة أمامي وابتسمت ابتسامةً خفيفةً، كأنها تشكرني سلفاً على ما افترضتْ أنني سأقوم به، وهو إصلاح الخطأ الذي وقع فيه الغارسون. لكنني تأخّرت في المبادرة قصداً، حتى أجعلها تفهم من تلقاء نفسها، أن الغارسون لم يُخطئ بل تصرّف بشكل طبيعيّ جدّاً وكما يجب، وأنها هي التي أخطأت، فنحن نعيش هنا في بلادنا لا هناك في بلاد الأفلام التي يحضرها الناس على السواتل. ثمّ انكشمتْ ابتسامتها لتحلّ محلّها علامات الحيرة والانزعاج، ثم نهضت فجأة مستأذنة بالغياب "لحظة". لم تقل إنها ذاهبة إلى الحمام بل قالت "عفواً لحظة!" وفي أثناء هذه "اللحظة" أحسستُ بالحيرة، وأدركت مدى ذكائها، وقلت في نفسي إنّ الذكاء للفتاة التي مثلها، صفة يجب ألا تؤخذ ببساطة، بل يجب التعاطي معها بمزيد من الحيطة والحذر والانتباه. لقد رمت الكرة في ملعبي بشكل طبيعيّ جدّاً، فهل عليّ "تصحيح" "خطأ" الغارسون أثناء "لحظة" غيابها؟ أم

ماذا؟ وبينما أنا أفكر في ما عليّ القيام به شاهدت صديقاً على طاولة أخرى، فأحسست أني أنقذت فنهضت أسلّم عليه، وأطَلتُ الحديث معه، أكثر مما تحتمل المناسبة، وأنا أنظر بطرف عيني إلى طاولتنا مترقّباً عودتها، إلى أن عادت، فاختصرت سلامي مع الصديق، وعدت إلى طاولتنا لأفاجأ بوجود قنينة بيرة ثانية أمامها، بينما قنينة البيبسي مبعدة إلى وسط الطاولة، فجلستُ وأبعدت قنينة البيرة التي أمامي، وتناولت البيبسي ورحت أشرب.

أعتقد أن ما فعلته ميريل ستريب منذ أوّل مشهد في الفيلم، كان عليّ أن أفعله أنا فوراً، منذ تلك اللحظة الأولى منذ أشهر طويلة، بعد هذا اللقاء الأوّل في المقهى. لكنني كنت دائماً كالمضروب على رأسه، لا يدري أين هو، ولا يستطيع التمييز بين الخطأ والصواب. فما أراه الآن بوضوح كلّي، لكم يكن إلا حقيقة ضبابيّة لا يُركن إليها، ولا يُبنى عليها. كمن على عينيه غشاوة.

لم أعتقد مثلاً إطلاقاً، حين وصفتني بأنني شرّير، بعدما تبيّنتْ من حبلها، أنها تقصد بالفعل ما تقول. لم أفكّر إطلاقاً أنها تقصد بالفعل أنني شرّير. اعتقدت، أو أردت الاعتقاد، أنها تقصد أنني أملك كرجل قدرة وفاعليّة. اعتقدتُ أنها تشير إلى تأثير فعل الذكورة وقوّتها. لم أفقه أنها قصدت حقيقةً أني أسأت إليها، وأنّي غيّرت جسمها وحوّلته، وأنها لن تتخلص من الأثر السيّئ الذي تركتُه فيها حتى ما بعد الولادة، وإلى الأبد. كأنني رميت عليها، مادّة حارقة، أسيداً، وشوّهتها تشويهاً مستمرّاً ودائماً. كأنني زججت فيها شيئاً أتلفها. غريب!

وكان أوّل سؤال سألتها إيّاه في تلك الجلسة الأولى، في لقائنا الشهير في مقهى الروضة هو هذا: قلت لها أوّل ما بدأنا الحديث: هل أنت على علاقة بأحد؟ فنظرت إليّ وخجلت و لم تجب، فقلت لها: لأنني بكلّ صراحة، أنا معك شخص جدّي وصريح، وأريدك أن تكوني معي كما أنا معك، صريحةً من أوّل الطريق. قلت لها إنني في حياتي كلها لم أكن جدّياً مثلما أنا الآن. وقلت لها إنّ تجاربي مع النساء كثيرة، لكنها كانت جميعها عابرة، وكانت من باب التسلية ليس إلا. ووعدتها بأن أخبرها إيّاها جميعها، وبأن أطلعها على كلّ شيء في حياتي، وبألا أخفي عليها شيئاً من ماضيّ. فقالت: لستَ مضطراً فهذا ماضيك ملكك! قلت: بلى! فكلّ ما لواحدنا يجب أن يكون ملكاً للاثنين!

تردّدت زوجتي قبل أن تجيبني، بعدما كرّرت عليها السؤال عدة مرات، لكنها قالت أخيراً: لا بد للفتاة من أن تتعرّض في حياتها. فقلت وقد بدا عليّ أني انشغل بالي، وهذا كان خطأ لأنني منعتها ربما من الكلام بصراحة: إلى ماذا تعرّضتِ؟ فنظرت إليّ نظرة الحذرة الخائفة، فقلت لا تخافي فالصراحة يجب أن تكون عنوان علاقتنا، فقالت: ما زال الوقت مبكراً على هذا الكلام (بعد بكّير عَ هالحكي!) فقلت لها: على جوابك عن هذا السؤال يتوقّف كلّ شيء تماماً، فنظرت إليّ وقالت: طلبني للزواج شباب كثيرون، ورجال من كلّ الأعمار، وأحياناً كنت أنفرد بهم في جلسات كهذه. فقلت: هذا كلّ شيء؟ فسكتت، فكرّرت السؤال: أهذا كلّ شيء؟ فهزّت برأسها. عند ذاك قلت: باسم الله فلنبدأ! وابتسمتْ حين رأتني تورّد خدّاي،

وتنهّدتْ، ثم خبّأت وجهها بيديها لحظات طويلة، ثم أزاحتهما عن عينين دامعتين، فقلت: أمن فرح أم من حزن؟ قالت بغضب: لماذا تريد أن تعرف؟ فقلت لها: البدايات دائماً مثيرة ومقلقة!

كان فرح قلبها يطفح دمعاً في عينيها. كانت غبطتها تطفح دمعاً في عينيها.

في المرّة الثانية حين اتصلت بها لنلتقي من جديد، أبدت ممانعةً، وهذا أمر طبيعيّ بالنسبة إلى فتاة عزباء، بنت بلد، مهما بدا عليها أنها متحرّرة، ثم رفضت معتذرة بألف سبب ومحتجة بألف حجّة. إلى أن باحت لي خالتي بالسرّ ودلّتني على المفتاح: زدتها عليها في الأسئلة المحرجة أثناء لقائنا الأوّل في الروضة! خدشت حياءها، بل أكثر!

حسناً فعلت خالتي إذ نبّهتني، فالتزمت الحذر من حيث التصرّف، ومن حيث طبيعة الأسئلة في المرّات اللاحقة. احترمت الحدود بمعنى ما.

لكنني لم أفرض نفسي عليها فرضاً، فلماذا تزوّجت إذن، إذا كانت لا تريد أن تشارك زوجها في كلّ شيء، في الماضي والحاضر والمستقبل، وفي السرّاء والضرّاء؟ ولماذا تزوّجت إذا كانت لا تريد إنجاب أولاد؟ ولماذا تزوّجت إذا كانت لا تريد ممارسة الجنس مع زوجها؟ ولماذا تزوّجت إذا كانت لا تتحمل أن يخطئ زوجها خطأً عابراً، وتسمّي اللاشيء محاولة اغتصاب؟ ولماذا تزوّجت إذا كانت لا تريد أن تكون زوجة؟

فهل تزوّجت لتطلّق حتى تتحرّر من قيود كثيرة مفروضة عليها كونها عزباء؟

يا إلهي!

أم أنها تزوّجت لتتقي الفضيحة التي أثارها وجود الفرنسي في حياتها؟ (وفي حياة خالتي؟)

هل يمكن أن أكون ضحيّة استراتجيّتها المدروسة؟ وخالتي؟ ما دور خالتي في الموضوع؟

لا بدّ أن يكون كلّ ما جرى مؤامرة مدبّرة، تلعب فيها خالتي دوراً أساسياً، فمنذ أسبوع والأزمة مشتدّة وخالتي لم تتصل بي لتسألني عمّا جرى، أو لتطمئن عليّ على الأقلّ.

ولوّ!

- "بتجنّن!"

- "بتجنّن!" قالت لي عندما حدّثتني أوّل مرّة عن ابنة الجيران، التي تسكن مع أهلها في البناية المقابلة. ففرحتُ فرحاً لا يوصف بهذه المفاجأة. وفرحت فرحاً لا يوصف لأنني أثق بذوق خالتي كثيراً، وهي معروفة بجدّيتها، وبأنها لا تخوض معارك دونكيشوتيّة وخاسرة في هذه المواضيع الحسّاسة على وجه الخصوص. خالتي امرأة تخالف أمزجتها وتعمل بعقل.

أخبرتني خالتي أن ابنة الجيران هذه تحبّها كثيراً، وترتاح إليها وتسِرّ لها

ما لا تسرّه لأحد، وتزورها دائماً. وهذا بالتأكيد ما جعلني آمل بالنصر في الجيب إن شاء الله، والقضيّة في حكم المنتهية. لكنّ هذه الفرحة أخفت في الوقت نفسه، أسئلةً وردت على خاطري فوراً، عن سبب تأخر خالتي إلى هذا اليوم في اتخاذ هذه المبادرة الجميلة، ولماذا لم تعرّفني بها من قبل؟ ولماذا لم تذكر لي اسمها إطلاقاً؟ مع أنّها تسكن هنا منذ سنتين، ومنذ اشترى زوجها هذه الشقّة، قبل أن يموت حرقاً بالنيران التي أُضرمت في آبار النفط في الكويت، حيث كان يعمل.

أخبرتني "كلّ" شيء عنها، لكنها رفضت أن تبوح لي باسمها رغم إلحاحي، وكانت حجّتها أنّ ذكر الاسم قد يفسد اللقاء، وكانت تكرّر لي دائماً أنه بدون ذكر الاسم سيبدو اللقاء طبيعيّاً وتلقائيّاً. ستأتي أنت غداً عند الغروب وقت زيارتها، بدون إشعار، فجأة، كما لو كنت ماراً من هنا بالصدفة وقرّرت زيارة خالتك، فأعرّفكما على بعضكما، وألحّ عليك بأن تبقى معنا لتشرب فنجان قهوة. هكذا ألفظ اسمها أمامك لأوّل مرّة، فلا أخجل ولا أشعر بالذنب.

– ولماذا بالذنب؟

وحتى الآن لم أفهم لماذا قالت ذلك، ولماذا تشعر بالذنب إذا باحت لي باسمها، وعندما ذكّرتها بذلك، عندما اتصلت بها مؤخراً، وألححت عليها وأصررت أن تحكي لي الحقيقة عن زوجتي، ولا شيء غير الحقيقة، ادّعت أنها لا تتذكّر هذه الحادثة، وقالت لي: وأية حقيقة تريد، فلا أراك تتكلم إلا على الحقيقة؟ قلت لها: كانت تجتمع عندك بهذا الفتى الفرنسيّ قبل زواجنا، فلماذا لم تطلعيني على ذلك؟ ثمّ

استطعتُ أن أنتزع منها انتزاعاً أنها استقبلتهما مرّة أو مرّتين فقط، وأنهما جلسا في الصالون و لم تغب عنهما لحظة واحدة إلا مرة واحدة، خمس دقائق، هو الوقت الذي اقتضاه النزول إلى الدكّان لشراء البنّ.

وهي لم تخبرني بهذا لأنه ليس فيه ما يدعو للإخبار، فقد كان اللقاء بالتأكيد لقاء تعارف في مكان أمين ولائق.

لا! بل كان أكثر من ذلك بكثير.

كان أصغر منها بعشر سنين، لكنه نزل عليها كشيء ذوّبها ذوباناً، وجاء وسكن في البناية ذاتها التي تسكن فيها خالتي بالصدفة البحت، لكنها التقته قبل أن يجيء ويسكن هنا، التقته في الطريق بالصدفة البحت أيضاً، وكان حائراً يحاول أن يركّب عبارة باللغة العربية يسأل بها عن فندق. عن فندق؟ كان يسكن في فندق غالٍ في شارع الحمرا فأراد أن يغيّره، وهكذا استضافته خالتي ليلةً أولى وكذلك ليلة ثانية، لكنه كان يخرج باكراً جداً في الصباح ولا يعود إلا متأخراً في المساء. لم يكن أحد منهما يراه إذن(؟!) إلا نادراً جداً؟ وقد عرض على خالتي مالاً مقابل هاتين الليلتين أو الثلاث، فهزئت خالتي منه وأفهمته أنها ليست بحاجة، ثم استأجر بمساعدتها شقة في البناية ذاتها لبضعة أشهر فقط، دفع الإيجار نقداً مرّة واحدة، وهذا بالطبع ما جعل المالك يرحّب به أحرّ ترحيب، لأن ابن البلد متى استأجر تملّك، بينما الأجانب عابرون، وفوق ذلك أحبه وتبنّاه كما أحبّته خالتي وتبنّته. لكنّها، أقصد زوجتي، لم تكن تستطيع الذهاب

لعنده دائماً وكلّما أرادت أو كلّما أراد، لأن عيون الجيران لم تكن لتغفل عن زيارة فتاة منفردة لرجل عازب يسكن وحده! خصوصاً أن هذه الفتاة هي ابنة الجيران العزباء، فكانت تلتقي به عند خالتي. ثم تطوّرت الأحداث إلى أن صارت تطلب منّي أن أعلّمها مفردات العمليّة الجنسيّة بالفرنسيّة، لتتواصل معه بلغته الجميلة الراقية المثقّفة، وذلك في اللحظات ذاتها التي كان يصرّح فيها جوسبان، رئيس وزراء فرنسا الاشتراكي الإنسانيّ، وبهذه اللغة الجميلة ذاتها، أن المقاومين اللبنانيين الذين يقاتلون الجيش الإسرائيلي، داخل الأراضي اللبنانية المحتلّة، هم إرهابيّون! كدت من غضبي أضرب برجلي سيارته، كما كان يضربها طلاب جامعة بير زيت في الضفة الغربية، وكدت أحطّم شاشة التلفزيون.

مع أن العزيزة زوجتي، لم تكن بحاجة إلى تعلّم تلك اللغة، فلغة الجسد واحدة موحّدة وموحّدة في كلّ مكان، وهي تولد فينا وتبقى حيّة، ثم إنهما كانا يستطيعان التواصل بالإنكليزية التي يعرفها، وبقليل من العربية الفصحى التي جاء إلى بيروت ليتعلّمها، ويتعلّم معها العاميّة. أفترض أنّه كان يحبّ ويفضّل أن تتكلم معه بالعربية فقط، فهذا وضع يُحسد عليه كلّ طالب لغة، لكنها كانت ترى، عن حقّ، أن بعضاً من المفردات الفرنسية في اللحظات المناسبة تزيد الوضع غواية.

وكانت تطلب مني أن أعلمها هذه المفردات ونحن في الفراش، وفي لحظات ممتعة، فتسألني فجأة: كيف نقول "ذلك" بالفرنسية؟ و"ماذا ذلك؟" قلت لها أوّل مرة سألتني، وكنتُ ما أزال مُنزِلاً وممدداً عليها، قالت "هذا" ورفعت قليلاً حوضها، فلم أفهم ما تريده، فقالت

لتوضّح: نقول بالإنكليزية عندما يبلغ أحدٌ لذّته... (قالت كلمةً لم أعد أذكرها)، فماذا نقول بالفرنسية؟ قلت لها Jouir, J'ai joui فقالت: وأنتَ؟ كيف تقول: أنتَ بلغتَ؟ قلت Tu as joui فردّدَت Tu as joui, Tu as joui، عدّة مرات! تردّدتُ قبل أن أعدل عن سؤالها عن سبب رغبتها في تعلّمها هذه المفردات بالفرنسية. كان يجب أن أسألها. لكنني لو سألتها لكتمت غضبها وأدارت وجهها عنّي كأني اقترفتُ ذنباً لا يغتفر، بل كأني اتّهمتها صراحةً بشيء ما، بأبشع التهم بالنسبة لامرأة مخلصة همّها الوحيد سعادة بيتها. فكلّ إشارة إلى ذلك مهما كانت مواربة غير مباشرة تثير غضبها. لكنني لم أستطع مرّة منع نفسي من سؤالها عن سبب رغبتها في تعلّم الفرنسية، و لم أقل "هذه المفردات" بالتحديد حتى لا أثير غضبها، وقلت أيضاً: أنت ذاهبة إلى الحرب بينما الناس راجعة منها! في إشارة إلى أن الناس في هذه الأيام أكثر ما تكون إقبالاً على تعلم الإنكليزية، فأجابتني بأنها أوّلاً تجيد الإنكليزية، وثانياً وقبل كلّ شيء تحب الفرنسية كثيراً، وترى فيها رقّةً ولطافة وعمقاً وثقافة، وأنّها تحبّ أصدقاءها الذين يتكلمون هذه اللغة، وتحب أن تماشيهم في كلامهم ومعارفهم وثقافتهم العالية! يا إلهي! استوت زوجتي جالسةً لتقول لي هذا الكلام، بعدما كانت ممدّدة عارية. جلست وغطّت علائم أنوثتها، وراحت تحرّك يديها في إشارات موازية لكلامها. لم تكن اللغة قادرة على التعبير عن أفكار زوجتي لكثرة ما هي عميقة ودقيقة ومركّبة، فاستعانت بيديها، متشبّهة بمقدّمات البرامج التلفزيونية ذات الطابع الثقافي، اللواتي يستوحين طُرق تعبير المفكرين الكبار، ويعمدنَ إلى أيديهن يستعنَّ

بها لتخليص أفكارهن المخزّنة في أمكنة يصعب بلوغها.

ودامت الحال على هذا المنوال، إلى أن تنبّه المالك أنّ في عبّه فأراً ففتح أزرار قميصه ونفضها! وطرد الفرنسي الذي حاول خبط رجله بالأرض مصرّاً على حريّته واستقلاليته، وعدم التدخّل في شؤونه الخاصة، كفرد في المجتمع له كامل الحقوق التي يضمنها له القانون. لكنّ تدخّل زوجتي على ما يبدو، أقنعه بالاختفاء فوراً لئلا تتحوّل القصة إلى فضيحة تتأذّى منها زوجتي إلى أبعد الحدود. وهنا أقنعتْ خالتي زوجتي بالزواج بي، وسهّلت لي الزواج بها، وهي التي كانت تنصحني بأن أعيش حياتي كما أهوى، دون مراعاة للأصول الاجتماعية، كما كانت تنصحني بألا أنصت للذين ينصحونني بالزواج بحجّة أنني كبرت في العمر.

عندما اتصلتُ بها لأسألها إذا كانت على علم بما يجري بيني وبين زوجتي، قالت إن والدة زوجتي أخبرتها بالموضوع، لكنّها لم ترَ زوجتي و لم تتكلّم معها إطلاقاً. وقالت أيضاً: لا تتعامل مع الموضوع بخفّة، وخصوصاً مع إخوتها! إخوة من؟ قلت. إخوة الخيّاطة! قالت. وبينما كنت غارقاً معها في هذا الحديث إذا بجرس بيتي يرنّ بإلحاح، فاضطررت إلى قطع الحديث معها على أن أتصل بها في ما بعد، لكنها قبل أن تقفل قالت: انتبه فقد يكون الطارق شقيقها، و لم يسمح لي الوقت بأن أسألها شقيق من.

كان المستعجِل شقيقها! شقيق الخيّاطة.

يا للصدفة! فما هذا اللعب؟

لفتت نظري فوراً حلقة حزام بنطلونه الجينز. كانت من النوع الذي يمكن منع حملها في الطائرات لأسباب أمنية. لأنها تمكّن حاملها من خطف الطائرة بكل بساطة، والتهديد بقتل الركّاب إن لم تُلبّ مطالبه قبل أجل مسمّى. دخل فوراً واتجه إلى طاولة الأكل وجلس إليها وحلّ حزامه عقدةً أو عقدتين، كأنه ما زال آكلاً مقدار خروف بكامله محشيّ بالرزّ المقلّى بالسمنة الحمويّة الصرف غير المغشوشة. قال: ستأتي الدولة لتأخذك إلى السجن. قلت مبتسماً ابتسامة المسيطر على الوضع سيطرة تامّة: ولكن هذا له أصول، يجب أن تقام الدعوى ويجب أن أبلّغ... قال قاطعاً كلامي: إذا شئت أُسقط الدعوى فوراً، وأُسقط حقّي وينتهي الموضوع. قال: خمسة آلاف دولار! قلت: مستحيل! ثم أنا لم أعتدِ على أختك! قال إياك أن تذكر أختي، وإذا كنت مضطراً إلى ذكرها فطهّر فمك قبل أن تذكرها. ثم حلّ حزامه بسرعة لا يمكن تصوّرها، وسحبه وضربني به على يديّ اللتين كنتُ شابكهما ببعضهما على الطاولة، فتألّمت ألماً لا يوصف، لكنني بيديّ هاتين المتألمتين حتى آخر حدود الألم، واللتين ما زالتا مشبوكتين، ضربته على وجهه ضربةً فاجأته قوّتها، فكاد يقع على الأرض لولا أن استدرك بحركة بهلوانية واستعاد توازنه. كان أصغر مني بالعمر لكنه أعظم منّي قامة، فذهبت إلى المطبخ مستفيداً من فقدانه توازنه، وتناولت سكيناً شلّحني إياها بسرعة، وصفعني وقال لي: ضعْها في أسفلك! لكن ليس الآن، بل بعد ثمان وأربعين ساعة!

يا للدقّة!

وقال: إيّاك أن تجرح مخرجك وأنت تضعها هناك!

كان سفيهاً وتافهاً.

لقد أمهلني ثماني وأربعين ساعة حتى أتدبّر خمسة آلاف دولار أميركي لحلّ المشكلة بيننا، ولتطبيع علاقاتنا! وخرج.

خمسة آلاف دولار! فهل يمزح أم ماذا؟ ومن يظنّني؟ هل يظنّني الحريري أم بيل غايتس؟ ومن أين يتعلّم الناس أمثاله التفكير والتعامل بهذه الأرقام الكبيرة، كأن التضخّم ليس في العملة وحسب، بل في كلّ شيء، وفي كلّ الميادين وخصوصاً في دماغنا. وفي المساء اتصل بي هو ذاته، هذا اللص المتسلّط، لينصحني بعدم الاتكال بعد الآن على زوجتي، لأنها وضعت نفسَها خارج اللعبة، بعدما طبّعت علاقتها به: زوجتك ذكيّة! إنها أذكى منك بكثير!

فما معنى قوله هذا؟

زوجتي دبّرت رأسها إذن معه بواسطة عمّها ربّما، الذي قد يكون وسّط أحد المرشحين للانتخابات النيابية، الذين يعتقدون أن الفوز يكون بعدد الأصوات، فقبل التوسّط أملاً بكسب صوته وصوتها، وأصوات مَن لعمّها عليهم مونة ويعترفون بالجميل. فهل ستنتخبه هي التي تقول دائماً أنها لا تؤمن بالانتخابات في بلادنا؟ هل ستكون عارفة بالجميل؟ لا أعتقد أنّ العرفان بالجميل من عاداتها. (لم تقل لي شكراً عندما علمت أنها حبلى!)

دبّرت زوجتي رأسها وتركته يستفرد بي، (بمعرفة من خالتي؟)

واعتبرت أن ذلك حقّها بما أنها لم تعد تربطها علاقة بي. هي تفضّل على هواها، وأنا ألبس ما تفضّله هي على هواها! "إيتس أوكي"، كما يحلو لزوجتي أن تقول في مثل هذه الحالات. لقد وضعت نفسَهَا في خندق مختلف. هي في خندق إذن وأنا في خندق. بسيطة. وليكنْ!

وليكنْ! إذا كان لا بدّ لي من خوض هذه المعركة. ولن تكون النتيجة إلا مظفّرة بإذن الله. فإلى أين ستهرب منّي وكيف وأنا فيها، في بطنها وفي أحشائها؟ فلن تستطيع الهرب منّي إلا بالموت. نعم بالموت وليس بأقلّ من الموت.

بطنها حجّة عليها!

فمهما تكن كاذبة في كلّ شيء، فلن تكون كاذبة في بطنها الذي لن تستطيع منعه من الاستدارة والتضخّم، ولن تستطيع الهروب من أن يكون لها علاقة بي، وهو ما سيفاجئ هذا السفيه السافل المنحطّ، شقيق الخيّاطة. ولن تستطيع تغيير قوانين الطبيعة، إلا إذا استفاقت فيها عبقرية لم تعرف مثيلاً لها الأيّام. وما أدراك ما تكون هذه العبقريّة؟ فلن تتفتّق فيها عبقرية إلا للغشّ، فهي ضعيفة عديمة الحيلة إلا في الكذب، خُذ كذباً ما شئتَ شرط أن تبدو صورتها لك ناصعة طاهرة.

عذراء!

عذراء النفس وعذراء الجسد. وعذراء في النفس أكثر بما لا يقاس مما هي عذراء في الجسد. فلم يحدث معها شيء تُلام عليه إلا اضطراراً،

وإن كتمت شيئاً عن الذي يجب أن يعرف عنها كلّ شيء، كلّ شيء تماماً لأنه بكل بساطة زوجها، فلأنها تخاف أن يُساء فهمها، بينما هي عفيفة النفس مستحيلة المنال. ففي مقهى الروضة في أوّل لقاء لي معها ادّعت أنه لم يكن لها علاقة سابقة. فقط أشياء تحدث مع كلّ فتاة، قالت. ثم تبيّن أنها كانت مخطوبة. مخطوبة؟

لا! لا! لا! لم تكن مخطوبة بشكل رسميّ معلن، لكنّ الشاب كان يزورهم دائماً.

- "كان دايماً عنّا"!

وكان أهله وأهلها على علم بأنه "دايماً عنّا"، وكانت علاقتهما في طبع الأشياء، وكان الزواج به أمراً حتميّاً لم يجئها أن تتساءل عن حدوثه أو عدم حدوثه. كانت طفلة لا تفقه شيئاً من هذه الدنيا.

حرام المسكينة!

كل هذا لم أدرِ به!

ولو لم تنعم عليّ بهذه النتف فكيف كنت سأدري به.

لا! لا! هذا شيء لم يدرِ أحد به لأنه لم يحصل صراحة، كما تحصل الأمور عادة. والصبي المعنيّ كان مراهقاً وكان قريبها: كان ابن خالتي! قالت ذلك أوّل مرّة وهي تختنق. وكان مَنْ حولهما يعتقد أن بينهما إلفة، ولم يكن من الممكن أن يكون بينهما أكثر من إلفة، خصوصاً بالنسبة إلى الكبار حولهما، ففارق السنّ بينهما كان كبيراً جدّاً، ثماني سنوات.

كنتُ صغيرة جدّاً.

يا إلهي.

لا تضع اللوم على أحد من أقربائي، كانت تقول لي حين كنت أهبّ للقتال: قدّمي الآن دعوى على الجميع! أدخليهم جميعاً إلى السجن! هذا اعتداء على طفلة، وتواطؤ من الآخرين! لا! لأنه لا يوجد شيء قاموا به أو لم يقوموا به ليلاموا عليه. وقالت إنها في الحقيقة، بسبب صغر سنّها، توهمت أشياء وأشياء، وأنّ قريبها هذا تزوّج في ما بعد، وكان عمرها ستّ عشرة سنة، وأنها صدمت بالأمر لأنها على براءتها لم تكن تتوقّع ذلك. هذا كلّ شيء.

كيف يكون هذا كلّ شيء وحين لفظت اسمه كادت تختنق!

لا! بل استفزّني عندما تزوّج في الخليج من سورية تعرّف عليها هناك، وأرسل صورة زوجته لوالدته، وكتب عليها أنها تشبهني! وأرتني خالتي الصورة وكان مكتوباً عليها: ألا تشبه ابنة خالتي كثيراً؟ استطعت قراءة العبارة لكنني لم أستطع تأمّل الصورة، لأرى ما إذا كانت بالفعل تشبهني، أم أنها كانت مزحة سمجة منه، لأنّ الدموع أغرقت عينيّ.

قالت "هذا ما أحسست به كطعنة، لأنه جعلني أتأكّد من أنّ مشاعري كانت مبنيّة على حقيقة." كيف هذا قلت لها، بل بالعكس، فهذا يؤكّد أنّ شعورك لم يكن مبنيّاً على شيء، ويؤكّد أيضاً أن كلّ ما كنت تحسبينه حقيقة كان وهماً وحسب، ويؤكّد بشكل خاص أنّ

ابن خالتك لم يكن يفكّر فيكِ كامرأة، بل كنت بالنسبة إليه قريبةً وحسب! فقالت بحرَد: هذا آخر همي أن يفكّر فيّ. قلت لها هذه قصّة قديمة جدّاً وعمرها حوالى أربع عشرة سنة، وما زالت فاعلة فيكِ إلى هذا الحدّ؟ فلم تُجب. وعلى السؤال الملحّ، عمّا إذا كان ابن خالتها موجوداً هنا، في بيروت، في الوقت الحاضر، لم تجب كذلك.

– خالتي أرجوكِ رجاء حارّاً، أخبريني ما إذا كان ابن خالتها قد عاد من السفر، وأجيبيني، أرجوكِ أن تجيبيني بصراحة مطلقة، ماذا تعرفين عن علاقة زوجتي بابن خالتها؟ فكأنها فوجئت بهذه الأسئلة: فأجابت: لا أعرف شيئاً إطلاقاً عن هذا الأمر. أخبرني الآن عن الشيء الأهمّ: ماذا قرّرتَ بالنسبة إلى شقيقها؟ ونصحتني بأن أتوصّل معه إلى حلّ لأن الأمر كيفما قلّبته مهزلة و"جرسة"، ثمّ أبدت استعدادها لمساعدتي بألف دولار، تستطيع التصرّف بها بدون أن يدري أحد، ويبقى الأمر سرّاً بيني وبينها إلى الأبد. اذهب وأنهِ القضيّة معه فوراً ولا تعطِ الفرصة لأحد من الناس أن يتدخّل، وقبلَ أن تعرف والدتك أيضاً بأمره، لأنها الآن لا تعرف أكثر مما أخبرتُها إيّاه وهو أن بينك وبين زوجتك بعض الصعوبات التي ما هي سوى غيمة صيف وتنقشع.

– هل هو هنا في هذه الأيّام؟ هل عاد من الخليج؟

قالت: كأني سمعت والدتها تقول منذ أكثر من أسبوع، إنه زارها بصحبة بناته الأربع.

– متى؟ في الليل؟ في النهار؟ هل كانت زوجتي عند والدتها؟

- كلّ ما أعرفه هو أنه زارها بصحبة بناته الأربع، وأنّ زوجته حبلى من جديد لأنه يريد صبيّاً، لكنّ الصورة أظهرت مؤخراً أنّ الطفل بنت.

أنا أعرف أن له أربع بنات، وليس له صبيّ، أخبرتني زوجتي بذلك، وقالت إن عدم إنجابه الصبيان يعود إلى دعوة دعتها عليه بألا يُنجب إلا البنات، حتى يعرف ما قيمتهنّ، وما معنى معاملتهنّ بخفّة وبدون احترام أو مراعاة. وأيّ خفّة؟ قلت لها، لم يعاملك بخفّة حسب ما تخبرينني، إلا إذا كنت تخفين أشياء عنّي. وبتّ هنا، عند هذا الحدّ من الموضوع، متأكداً من أنها تخفي أشياء كثيرة عني، وأشياء أساسية، فردّت عليّ بأنها أخبرتني باختصار ما جرى، وبأن هذه قصة قديمة لم تعد تتذكّرها بكل تفاصيلها. فأنكرتُ زعمها بقوّة، وقلت لها إنها لم تنسَ شيئاً منها على الإطلاق، وأنها تتذكّر كلّ شيء لأن ما جرى جرح ما زال ينزف كأنه الآن.

ثم إن زوجتي لم تعد قادرة، نتيجة إلحاحي اليوميّ المستمرّ، على أن تسكت عمّا كانت تخبّئه، وتجهد حتى يبقى سرّاً في قلبها وحدها، وفي قلب خالتي بلا أدنى شكّ، بل صارت مضطّرة إلى أن تكشف كلّ مرّة عن شيء جديد من قصّتها هذه، حتى انتهت ذات يوم بأن أخبرتها كاملةً، من ألفها إلى يائها.

كانوا في السيّارة، وكانت والدتها تقود، وخالتها إلى جانبها، وكانت هي على المقعد الخلفي وقد وضعها ابن خالتها في حضنه، ومعهما أيضاً أختها الكبرى وأخته الصغرى، وكان عمرها تسع سنوات،

وكان هو في السادسة عشرة. كانوا في الطريق لزيارة الشريط المحتلّ وقد تحوّل إلى مزار، بعد تحريره من الاحتلال الإسرائيلي، الذي دام أكثر من عشرين سنة.

كان الشرط أن تجلس أختها وابنة خالتها إلى جهة البحر، أثناء الذهاب، وهي وابن خالتها إلى جهة الجبل، ثم أن يتبادلا الأمكنة في طريق العودة.

كانت الأمّ وأختها منصرفتين إلى تبادل الملاحظات حول الجنوب الذي تزورانه لأوّل مرّة منذ الاجتياح الإسرائيلي الأوّل.

وكان الجوّ على الطريق جوّ عيد: يافطات تشيد بالمقاومة وبتضحياتها الكبيرة، وسيّارات خاصة وعموميّة، وباصات تقلّ الوفود الشعبية والنقابية، وتلامذة المدارس من كلّ مناطق لبنان، ومن الدول العربيّة أيضاً.

وكانت أختها وابنة خالتها منصرفتين إلى تأمّل البحر الجميل، بين بيروت وصيدا، وكانت هي في حضن ابن خالتها تكاد تغفو، كعادتها كلّ مرّة تستقل سيّارة في رحلة طويلة.

وكان الوقت عند الساعة التاسعة صباحاً، حين أدخل يده بين فخذيها وتلمّس فرجها وأدخل فيه إصبعه، فدهشت لما يجري، ولم تفقه شيئاً، وظلّ برهةً يحرّك إصبعه فيها، فتشعر هي أثناءها بأشياء غريبة عجيبة لم تشعر بها من قبل إطلاقاً، ولم تعرف لهذه المشاعر أسماءً. وكانت تودّ أن تقول له بأن يسحب يده من حيث كانت، لكنه كان

يغمرها بقوّة وحنان، كما تحبّ أن يغمرها عادة، من زمان. وهي لا تتذكّر إلا وابن خالتها يحملها ويغنّجها ويضمّها إليه، وكانت تقول له دائماً أنت زوجي، فيضحك الجميع، إلا والدها الذي قال لها مرّة: لا تقولي هذا! ففوجئت وركضت إلى والدتها تخبرها بما قال، فأجابتها بأنّ والدها لا يفكّر إلا بالسوء، وعليها ألا تعير هذا الكلام أيّ انتباه.

ثمّ قرّب ابن خالتها فمه من أذنها، وسألها وهو يعَضّها عضّاً خفيفاً:

"مبسوطة؟"

فهزّت برأسها علامة الإيجاب. وكانت بالفعل "مبسوطة" بشكل ما. فقال لها: إيّاكِ أن تخبري أحداً! وقال لها على سبيل التهديد: إذا علمت أنك أخبرت أحداً فلن أتزوّجك أبداً! فخافت! فخافت كثيراً واضطربت وبكت. ولما رآها تبكي سحب يدَه فازداد خوفها وتضاعف من أن يكون غضب منها وهجرها، فقالت له حينذاك:

- "خلّي إيدَكْ!"

قال: أُبقيها، شرط أن تعديني مرّة ثانية وثالثة وأخرى بأنّك لن تبوحي لأحد بهذا! فوعدته وأقسمت بحياة والدها ووالدتها وجميع إخوتها أنها ستبقى وفيّة بوعدها، فأعاد يدَه عند ذاك وراح يلامسها ويداعبها إلى أن شدّها فجأة بقوّة وآلمها.

وكبرت هذه الطفلة، التي ستصبح ذات يوم زوجتي بتدبير من خالتي، على وعد منه أنه سيتزوّجها، شرط ألا تبوح لأحد بما ظلّ

يجري بينهما طوال سنوات سبع طوال.

فماذا كان يجري بينهما؟

زوجتي تدّعي وتلحّ في ادّعائها أنه لم يلجها إطلاقاً! ولا مرّة! فصدّق يا "رشّود" إن كنت تستطيع أن تصدّق!

فكيف تريدينني أن أصدّق؟ كنت دائماً أردّد لها. بأي حقّ تطلبين منّي ذلك؟ فهذا فوق طاقتي.

وقلت لها بكل إخلاص، إنني أريد أن يكون كلامها صحيحاً وصادقاً، وأريده من كلّ قلبي وربّي أن يكون معبّراً عن الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة. ولكنني لا أستطيع. ومن أعماق قلبي قلت لها إنني لا أستطيع، وطلبت منها المساعدة.

– ساعديني! أنا أتمنّى ألا تكوني كاذبة، ولكن ساعديني حتّى أصدّق كلامك.

وكانت تجيبني أحياناً: إن شئتَ صدّق وإن شئت لا تصدّق، فأنت حرّ وقد بلغتَ سنّ النضج و لم تعد مراهقاً. أنت مسؤول عن أقوالك وأفعالك، كانت تقول لي. فلا أفهم ماذا تقصد بقولها هذا، ولا أفهم ما إذا كانت تسخر منّي أم ماذا؟

هل من المعقول أن تبقي معه سبع سنوات كاملة وأكثر، بدون أن تتصرّفا كرجل وامرأة تامّين؟ من يصدّق ذلك؟

لم أبقَ معه، كانت تقول، بل هذه كانت طبيعة الأشياء، فهو، في براءتي

وسذاجتي، زوجي ما إن تحين الفرصة، وأنا له على دوام الأيّام. لم أكن أناقش ذلك مع أحد، و لم أكن أفكّر فيه، و لم أكن أفكّر في غيره مما يخالفه أو يناقضه، أو بكلّ بساطة مما ليس سواه. فهمت؟ و لم يكن في وعيي أن الزوج والزوجة هما كما نحن الآن! فهمت؟

نعم فهمت، ولكن قولي لي ماذا كنتما تفعلان إذن طوال هذه السنوات السبع إن لم...

لا يهمّك إلا "هذا"، كانت تقول على سبيل اللوم.

كأن "هذا" يا إلهي ليس مهمّاً! فما المهمّ إذن أيتها السيّدة المتحرّرة بقوّة وباكراً جدّاً؟ أيتها المدمنة على أفلام السواتل وبرامجها. قولي ما يكون المهم إذا لم يكن مغامرات زوجتي الجنسيّة؟ زوجتي شريكة فراشي، أمّ أولادي، حاملة اسمي، المسميّة عليّ، التي إن مسّها أحد مسّني، بكلّ معاني الكلمة، المجرّدة منها والملموسة الحسيّة... يعني التي إن ولجها رجل ولجني (يا إلهي!) وإن...

كان هو يتمتّع بها، وكانت هي لا تبادر إلى شيء، حتى بلغت السادسة عشرة من عمرها! وكيف إذن كان يتمتّع بكِ كيف؟ أخبريني، فمن أحقّ بمعرفة كلّ شيء عنك من زوجك الذي يقبل بكِ رغم كلّ شيء، شرط أن يكون ما تقولينه معبّراً عن الحقيقة. أتمنّى ألا يكون تمّ ولوجٌ وألا تكوني تمتّعتِ، وأن تكوني كائنة رهينة براءتك، وضحيّة سذاجتك، وجهل أهلك وأقربائك. ولكن أخبريني ما جرى بالتفصيل!

بالتفصيل! بالتفصيل! بدون زيادة أو نقصان. بل اعلمي أنّي أفضّل الزيادة على النقصان.

لم يكن عندهما مكان يختليان فيه. كانا يتقابلان في بيت أهلها عندما يكون مع والدته في زيارة لهم، أو العكس، عندما تأخذها والدتها معها لزيارة أختها.

وعندما كبرت صارت خالتها تلاحظ أنهما منسجمان مع بعضهما. وقد باحت لأختها مرّة بما تلاحظه، وأسرّت لها بأنها تتمنّى أن يكونا لبعضهما، فأجابتها أختها بأن المستقبل بيد الله. لكنها أضافت: "ليش لأ؟" لكنّه هو لم يكن يحدثها بشيء على الإطلاق. لا بالزواج ولا بالحب ولا بعاطفة من أيّ نوع كان، ولم يعدها بشيء، إنما هي التي كانت تعتبر أنّ ما يجري بينهما هو أمر طبيعيّ جداً، وأنهما سيتزوّجان ذات يوم حين تسنح لهما الظروف قريباً، ولم تشك في هذا ولو مرّة واحدة وحيدة. غريب.

كانا، حين يلتقيان في بيت أحدهما، ينعزلان في غرفة، فيقترب منها ويقبّلها، وهما على ثيابهما لم ينزعا عنهما شيئاً.

حتّى عندما بلغتِ سن السادسة عشر، وكان هو بلغ سنّ الرابعة والعشرين؟

- هل تريدين منّي أن أصدّق أنّ ما تدّعينه، من أنّك لم ترَي في حياتك كلها مَنيَّ رجل هو ادعاء صحيح؟ فهل يمكن على امتداد سبع سنوات بصيفها وشتائها، أنك لم تلتقِ به ساعة من الزمان لم

تكونا فيها بعيدين عن رقابة أحد. ألم تتعريا ولا مرّة؟

لم ترَ ذكر رجل في حياتها! قالت.

فلماذا هذا الادعاء الذي لا يمكن تصديقه.

سألتك من أوّل الدرب، من أوّل مرّة التقينا في مقهى الروضة، أن تقولي الحقيقة لأنني رجل جاد، فأوهمتني أنك قلت الحقيقة، وكذبت عليّ، وها إننا ندفع كلانا ثمن هذا الكذب.

فكيف سال دمكِ إذن؟ من أين جئت بهذا الدم، ليلة دخلتُ فيكِ المرّة الأولى؟

قالت: جئتُ به من أجلك! فعندما صرتَ فجأةً تلحّ بعقد الزواج، وتطلب أن يكون ذلك فوراً، ذهبتُ عند طبيب...

طبيب أم طبيبة؟

وما الفرق؟

وطلبتُ منه أن يجري لي هذه العمليّة سريعاً. من هنا جئت بهذا الدم الذي تتكلّم عنه.

– من أجلكَ! أقرّت أخيراً.

ثم صارت تكرّر دائماً، عندما تراني أنفعل أثناء الكلام على الموضوع، أنّ هذه العمليّة كانت من أجلي، حتى ينجح زواجنا.

– وعندما أخبرتّني ما قالته صاحبة صديقك، قلت في نفسي إنني

حسناً فعلت، وإن هذه هديّة تثمّنها غالياً.

لا يمكن تصوّر إنسان يستطيع قلب الأمور على هواه كما تفعل هي.

القادرة! القديرة! الماكرة!

فبدل أن تعترف بأنها كاذبة، وبأنها ساقطة بدون أخلاق، يتحصّل معها في حساباتها، رغم هذا الانهيار العظيم، أنها ضحّت من أجلي!

يا للأخلاق العالية! ما شاء الله!

قامت من أجلي، لكثرة ما هي مغرمة بي، بتضحيات كبيرة، ومن هذه التضحيات أنها رتقت بكارتها حتى أتوهّم أنها بكر، لأنني لا أقبل بالزواج من امرأة مفتوحة ثيّب!

تستغرب زوجتي أنّي لا أقبل بالزواج من امرأة ثيّب، وكأنني كائن شواذّ لم تسمع بوجود مِثْلٍ له، لكنها لكثرة حبّها لي، تقبل بي كأمر لا مفرّ منه، وتضحّي من أجلي، وتخاطر بصحّتها، وتجري عملية جراحية ليكتمل جسدها، ويصبح على ما أريد تماماً. ثم تخفي كلّ هذا عليّ، حتّى لا ينشغل بالي، وحتى لا أشكّ في شيء!

نعم!

لكنني لم أكن بحاجة إلى ذكاء حاد، حتى أجرّها جراً إلى الاعتراف بكلّ هذه الأمور الخطيرة، التي أخفتها عنّي، لأنها كانت تفضح نفسها من تلقاء نفسها بدون أن تدري، وبدون أن أبذل جهوداً مضنية. كان يكفيها مثلاً أن تذكر اسم خالتها فقط، لتحمّر وتخضرّ

وتصفرّ، وحين علمتْ أن خالتها زارت والدتها مرّة اشتعلت غضباً، لا بسبب أنها زارتها، بل لأنها لم تتصل قبل مجيئها بوالدتها، لتستأذنها وتبلغها بأنها آتية:

- فإمّا أنا وإمّا خالتي! كانت تهدّد والدتَها.

لا تريد أن تلتقي بخالتها في مكان، وخصوصاً في بيت أهلها، لذلك أصرّت على والدتها أن تفرض على أختها الاتصال بها قبل أن تزورها، لئلا تكون هي، زوجتي، هناك وتلتقي بها غصباً عنها.

حين بلغ زوجتي أنّ ابن خالتها تزوّج، انفجرت بكلّ ما تملك من أسرار، وأخبرت والدتها بكلّ ما كانت تتوقّعه من ابن خالتها، وأخبرتها بأنه، وكبرهان قاطع على صحة كلامها، فضّ بكارتها منذ كان عمرها تسع سنوات لا غير، واشتعلت الحرب فترة بين الوالدة والخالة، ثمّ حلّ السلام بين الأختين بعدما عرضت الخالة كلّ مساعدة ممكنة، ووعدت بأن تقنع ابنها، إن كان ادعاء زوجتي صحيحاً، بأن يدفع تكاليف سفرها إلى فرنسا أو إنكلترا لإجراء عملية رتق بكارتها هناك. لكنّ زوجتي رفضت بكل ما تملك من عنفوان، وخبطت رجلها في الأرض وقالت: أنا سيّدة أمري!

أمّا أنا فكنت في كلّ هذه المعمعة، ورغم قساوة الأحداث، وبدون أيّ مبالغة، مثالاً في التعاون والحبّ والتسامح، بحيث إنني اقترحت عليها حلاً، ينشلها وينشلني من هذا العذاب اليوميّ المستمرّ الذي نعيشه، وبعد نقاش طويل، وبعد أخذ وردّ طال أيّاماً وليالي، وافقتْ على أن نزور معاً طبيبة نسائية، لنسألها عمّا إذا كانت مفتوحة باليد

من زمان، أو أنها مفتوحة من وقت قريب وبغير اليد. وعلى أساس ما تقوله الطبيبه، نقرّر نحن من هو على حقّ ومن هو على خطأ، ويأخذ بالتالي كلّ واحد منّا القرار الذي يناسبه. فإذا كانت بالفعل مفتوحة باليد، منذ صغر سنّها فأنا مستعدّ أن أسامحها بشكل كامل، وأن أقلب الصفحة نهائيّاً، وأن أجعل هذا الموضوع بيننا نسياً منسيّاً، كأنه لم يكن، فأنا لست سفّاحاً ولا سجّاناً ولا سيّافاً، أنا لست سوى رجل يريد من الحياة أقلّ ما يمكن أن تعطيه: فتاة بكراً. ولا بدّ لي من أن أعترف بأن قبولها الذهاب برفقتي عند طبيبة أنا اخترتها، لاستشارتها في هذه المسألة بالذات، هو مبادرة من قبلها أقدّرها جدّاً، وأثمنّها عالياً. هذا دليل منها آخر، على حسن نيّتها، وطيّب إرادتها في أن نعيش معاً بسلام ووفاق.

أمّا إذا كان الأمر خلاف ذلك، أي إذا كان فقدانها بكارتها يعود إلى زمن قريب، فلكل حادث حديث، وقراري واضح عندذاك، ولا تردّد فيه، وهو أنني لن أسمح لها بأن تلعب بي هذا اللعب، وبأن تحتقرني هذا الاحتقار، وسأجعلها تدفع الثمن. وهناك أشياء في موقفها تسمح بأن أفرض هذه الفرضيّة، ومن بين هذه الأشياء احتجاجها على أن الطبيبة لا يمكنها أن تعرف ما إذا كان فضّ البكارة جرى بالإصبع أو بالشيء الآخر، وكان ردّي بأنه علينا أن نسمع ما ستقوله الطبيبة أوّلاً، وقبل أن نحلّل ونفسّر، فلا داعي أبداً لاستباق الأمور.

وما زاد شكوكي أيضاً، إصرارها أوّلاً على طبيبها الذي اعتادت على استشارته، لكنّ رفضي كان قاطعاً لهذه الفكرة، لأن طبيبها هذا قد يمالئها، أو قد يتآمر معها – على أساس أن تجربته كطبيب نسائي،

علّمته أن يكون نصيراً للمرأة، لكثرة ما رأى بأمّ العين العذاب الذي تتعذبه. أنا بكل صراحة لا أحبّ أن تذهب المرأة عند طبيب رجل، إلا في حال اضطرت إلى ذلك، وإلا فلتذهب عند طبيبة. أنا لا أحب أطباء النساء من الرجال، أراهم في غير مكانهم، فأنا كرجل يحقّ لي أن تكون هناك أشياء لي وحدي في امرأتي، ولا أحبّ أن يشاركني فيها أحد، لا باللمس ولا بالنظر ولا بالشمّ. أنا لست متزمّتاً، لكنني أحب أن تكون امرأة واحدة في الحياة لي وحدي. فأين العجب في ذلك؟ لا أستطيع أن أتلذّذ في مكان سبقني إليه أحد. أبقى أيّاماً طويلة منزعجاً عند الاقتراب من شيء حطّ يده عليه الطبيب، فمن الذي يلومني على ذلك ولماذا؟ هكذا يفرز دماغي. أنا أقول بأنّ المرأة يجب ألا تذهب عند طبيب رجل مهما كلّف الأمر، لا أقول ذلك إطلاقاً، ولكنّني أقول، إنها يجب أن تذهب عند طبيبة امرأة إذا كانت هذه الطبيبة موجودة، ولا يحقّ لها أن تذهب عند طبيب إذا كانت تلك متوافرة. فهل في هذا الموقف تزمّت؟ وأين التزمّت فيه؟ حين تقع عين الطبيب على ما يثيرني في امرأتي، أشعر أنه عرّاني وفضحني وهتك ستري، فكيف إذا لمس هذا المكان لمساً وعبث به دَسْدَسَةً. فكيف يُطلب من الإنسان إن يُثيره الجسد، أو أجزاء منه بشكل خاص، وأن يكون هذا الجسد مشاعاً في الوقت نفسه. لا!

لا أحبّ الشعراء المدّعين، السنوب، الذين يستمتعون بسماع أنفسهم يردّدون أشياء وأشياء عن المرأة، وعن حريّة المرأة، وعن أنها كذا وأنها كذا. "المرأة كالكتاب الجميل، يقول أحد فحولهم، فلا يمنع إن تلذّذ بقراءته الناس جميعاً، من أن تتلذّذ بقراءته أنت!" لا! المرأة ليست

كتاباً جميلاً، هذا كلام فارغ مدّع، وليس فيه من الجمال إلا طريقة قوله وحسب. لو رأيتَ هؤلاء الشعراء كيف يتعاملون هم أنفسهم مع النساء!

- هذه! أشم عليها رائحة الرجال! سمعت أحد الشعراء الشباب يقول. وهذا الشاعر يحمل لواء القصيدة الحديثة، ويرفض أن يستقرّ في الخندق الأوّل دفاعاً عن الشعر الحديث، لأنه بكلّ بساطة، يصرّ على أن يبقى منطلقاً نحو قلاع الشعر العامودي، لدكّها أو لدكّ ما بقي منها. ولن يغمض له جفن، ولن يرمي سلاحه، قبل أن يأتي على آخر حصن من هذه الحصون!

- آلو بونجور مدام، لحظة بليز!

هكذا أجابت السكرتيرة عندما اتصلنا، لنطلب تعيين موعد مع الطبيبة التي استدللت عليها، وسألت عن أخلاقها عند من تعامل معها، ونصحوني بها.

وبعد لحظة من الانتظار، عادت إلينا السكرتيرة، وأعطتنا موعداً بعد أسبوع، عند الساعة العاشرة تماماً.

أسبوع؟

هذا وقت طويل. لم يعجبني ذلك على الإطلاق. فالأطباء عادة يدّعون أن زبائنهم لا تحصى من باب الدعاية فقط، فيعطونهم مواعيد بعد أيام كثيرة، أو يحشرون المواعيد كلّها في وقت واحد، ليعطوا

الانطباع بأنهم مقصودون من كلّ حدب وصوب، وعلى المريض الذي يبغي استشارة أن يلحق بنفسه! فهل هي كذلك أيضاً؟

خسارة!

قبل الموعد بيوم واحد اتصلتُ بالعيادة وحدي في غياب امرأتي، وطلبت الكلام مباشرة مع الدكتورة، بعدما عرّفت السكرتيرة بنفسي. وقلت لها، للطبيبة، إنّ كلّ ما أطلبه منها، هو أن تكون صادقة غداً في قول الحقيقة، وألا تخفي عنّي شيئاً مما تراه، وأنني قطعاً لا أريد منها غير ذلك. لم تعلّق على كلامي بشيء، واكتفت بالقول إن هذا ما سيكون: اطئمن!

يجب ألا أستبعد أن تكون هذه المرأة صادقة، وأن يكون وقتها لا يسمح لها باستقبالنا إلا بعد أسبوع. ثمّ بيّنت التجربة أنها صادقة بالفعل، كما تمنّيتها أن تكون. فقد طلبت مني أن أدخل مع زوجتي إلى مقصورة الفحص، وأعطت نفسها وقتاً للتأمّل قبل أن تطلق حكمها. فحصتها جيداً، وفتحت كتُباً قرأت فيها مقاطع، ودرست صوراً ملوّنة، واتصلت بأحد ما تكلّمت معه بمفردات مختصّة لم أفهم منها شيئاً، ثم طلبت منا الجلوس إلى مكتبها وقالت: إنّ الثقب حدث من زمان، لكنني لا أستطيع أن أحدّد تاريخ حدوثه بالضبط. أمّا رتق الفرج وتمزّقه من جديد فكان من أسابيع لا أكثر. هنا سألتها إن كانت تستطيع أن تقدّر على التقريب لا على الدقّة تاريخ حدوث الثقب، أمنذ سنة أو ثلاث أو خمس؟ لا أقلّ من عدّة سنوات قالت، ولا أستبعد أن تكون المدّة عشر سنوات أو ربما أكثر. ثم سألتها: هل

نستطيع تحديد الآلة التي تمّ بها الأمر؟ فقالت بعد أن بدا عليها أنه فاجأها السؤال: لا! فألححت فقلت: هل هي آلة حادة مثلاً، أم إصبع يدٍ، أم شيء آخر، فقالت: في الحقيقة لا أستطيع الجزم، لكن الأمر على ما يبدو تم بدون أن يتمزّق شيء خارج الممرّ. ثم سألتها: هل تستطيعين تحديد ضخامة الشيء الذي تمّ به الأمر، أقصد قطرَه، فبدا عليها أنها انزعجت من هذا السؤال، لكنني لم أتراجع وأفهمتها أنني جئت من أجل هذا، من أجل كلّ الحقيقة، لا من أجل شيء آخر، فزوجتي ليست مريضة والحمد لله، ثمّ إنه لا حياء في معرفة الحقيقة، وخصوصاً في هذه الأمور التي تندرج في باب الأخلاق والدين. ثم انصبت أسئلتي الأخيرة على معرفة ما إذا كانت زوجتي، قبل الزواج، مارست الولوج بشكل دائم أو متقطّع، ومنذ متى، وحتّى متى؟ فلم تستطع إعطائي حكماً جازماً، لكنني، قالت، أستطيع الجزم بأنها لم تلد مثلاً و لم تجهض. أما بالنسبة إلى ممارستها الجنس بالولوج، فهذا أمر يجب أن تصدّقها فيه أو لا تصدقها. فماذا تنصحينني؟ قلت، أأصدقها أم لا؟ فرفعت كتفيها علامة أنها لا يمكن أن تفيدني في هذا، ثم قالت، إنها زوجتك وهذا أمر بينكما لا يجوز لي التدخّل فيه، ولا أريد ذلك. فقلت لها موضحاً ما قصدته: إنني أريد معرفة ما إذا كنتِ، بعدما عاينتها ورأيت بعينك كلّ شيء، ميّالة إلى الاعتقاد بأنها كانت على علاقة جنسية دائمة أو متقطّعة أم لا؟ فهذا ما قصدت قوله. فسألتني منذ كم نحن متزوّجان، فقلت لها منذ شهر وأضفت، لأنني فهمت مقصدها من سؤالها: لكننا لم نمارس بالشكل الكامل إلا عشر مرات. فابتسمت قليلاً، وعنت بهذه الابتسامة أنها فهمت

منّي أنني أعدُّ المرات التي ألج فيها زوجتي.

هذه كانت حصيلة زيارتنا للطبيبة. لم نتقدّم في شيء.

وكانت زوجتي في تلك الأثناء صامتةً، كأنها منتقلة إلى عالم آخر، لا صلة له البتّة بالمكان الذي نحن فيه، وكانت عيناها رطبتين كأنهما أوّل البكاء، وكانت تنظر بهما دون أن ترى.

لم نتبادل كلمة واحدة بعدما خرجنا من عند الطبيبة، كنت كأنني ما أزال خارجاً من ماء البحر حيث كدت أعرق، لكنني انتُشلت في اللحظة الأخيرة، كنت بلا قوة بتاتاً، وبلا عافية، في مدينة بحريّة رطبة وحارّة، في بيروت في آب، والحرارة أعلى من معدّلاتها بكثير، والكهرباء مقطوعة بسبب نقص الفيول الذي يُمَشّي محطات التوليد، وشركات الإمداد تشكو وزارة الكهرباء التي لا تسدد ما عليها من فواتير متراكمة. فذهبت في طريقي تاركاً زوجتي تذهب في طريقها. لكنني استطعت أن أقول لها وأنا أنحو في الاتجاه الآخر، وبدون أن أنظر إليها: أنا ذاهب لأسأل عن سعر التلفزيون.

لم أسأل عن سعر التلفزيون، لكنني فكّرت بأنني أخطأت بزواجي. أو أنني فكّرت بأنه كُتب عليّ أن أشقى. وأنني ألعوبة في يد القدر الذي ربما يتركه الله، عزّ وجلّ، يتلاعب بمصائر الناس، أو بمصائر بعضها. أو أن الشياطين تتلاعب بي لأنها رأت فيّ ضعفاً استغلّته لتمسك بزمامي.

نعم، الشياطين!

أليس للشياطين وجود؟ وهل أحد يمكن أن ينكر وجودها؟

وإلا كيف أمكن أن يحدث لي هذا، أنا الذي لم يخطر على بالي يوماً أن أكون ضحيّة من هذا النوع.

أذكر أنني حين قرأت أوّل مرّة **ألف ليلة وليلة**، وكنت ما أزال في أوّل طلعتي، صدمت واضطربت، لأنني كنت أحلم طوال مراهقتي بأن أكون ملكاً، لكثرة ما كنتُ أحب النساء، وكان الملك في زعمي، يملك من النساء ما يشاء، وكانت النساء يحلمن بأن يمتلكهنّ ملك. وكان حلمهنّ أن يُخلصن لزوجهنّ الملك.

"أنا الملك!"

كنت أدوّن على كتبي ودفاتري هذه العبارة، وكذلك على لوح قاعة الدرس. وحين أقلّب اليوم صفحات ما بقي لديّ من دفاتر وكتب من تلك المرحلة، أعجب لهذا الإلحاح، بل لهذا الهوَس، حتى إن أترابي سمّوني "أنا الملك" وهذا ما قهرني أشد القهر، لأنني كنت أودّ أن يسمّوني "الملك!" وكنت أودّ أن يقولوا: جاء "الملك" وراح "الملك"، لا جاء "أنا الملك" وراح "أنا الملك"، لكنّ نزوع المراهقين لا يُردّ، وأحسست بعنف يمارس عليّ ويزداد كلّما حاولت ردّه.

فكيف تخون النساء أزواجهن الملوك! صفعتني الصفحات الأولى من **ألف ليلة وليلة!** تخون المرأة زوجها الملك مع العبيد في العراء:

فنظر شاه زمان أخو شهريار، وإذا باب القصر قد فتح وخرج منه

عشرون جارية وعشرون عبداً، وامرأة أخيه تمشي بينهم، وهي في غاية الحسن والجمال، حتى وصلوا إلى فسقية وخلعوا ثيابهم وجلسوا مع بعضهم بعضاً. وإذا بامرأة الملك تقول: يا مسعود، فجاءها عبد أسود فعانقها وعانقته وواقعها، وكذلك فعل باقي الجواري...!

كأنّ إصبعاً من الديناميت وُلِّعت فتيلتهُ، ووضع في تجويفة دماغي! كأني في كميون فلتت فرامله في نزلة – على طريقة زوجتي ووالدتها في التشبيه – في حيّ شعبيّ يعجّ بالناس والأولاد.

وما زاد في قوّة الصدمة، أنّ هذا الكائن الجميل اللطيف الطاهر الأثيريّ، الذي هو المرأة، يستطيع أن يلوي إرادة العفاريت التي تفوق الملوك قوّة وحيلة ودهاء! وهذا التفوّق ليس من أجل الخير، بل من أجل الشرّ، فهي لا تتفوّق، عليها حتّى تتحرّر من أسرها، بل حتى تثأر منه بمضاجعة رجال آخرين:

فقال الملك شهريار لأخيه شاه زمان: مرادي أن أرى بعيني (...) فلمّا رأى الملك شهريار ذلك الأمر طار عقله من رأسه وقال لأخيه شاه زمان قم بنا نسافر إلى حال سبيلنا وليس لنا حاجة بالملك حتى ننظر هل جرى لأحد مثلنا أو لا، فيكون موتنا خيراً من حياتنا، (...) وإذا بجنّي (...) على رأسه صندوق، طلع إلى البر وأتى نحو الشجرة التي هما فوقها، وفتح الصندوق وأخرج منه علبة ثم فتحها، فخرجت منه صبية غرّاء بهيّة كالشمس المضيئة، فلما نظر إليها الجنّي قال يا سيدة

الحرائر التي قد اختطفتك ليلة عرسك أريد أن أنام قليلاً، ثم إن الجني وضع رأسه على ركبتها ونام. فرفعت رأسها إلى أعلى الشجرة فرأت الملكين، فرفعت رأس الجني من فوق ركبتها ووضعتها على الأرض ووقفت تحت الشجرة وقالت لهما بالإشارة: انزلا ولا تخافا من هذا العفريت، ونزلا إليها فقامت لهما وقالت قفا وأخرجت لهما من جيبها كيساً وأخرجت منه عقداً فيه خمسمئة وسبعون خاتماً، فقالت لهما: أتدريان ما هذه فقالا لها لا ندري، فقالت لهما أصحاب هذه الخواتم كلها كانوا يفعلون بي على غفلة من هذا العفريت فأعطياني خاتميكما أنتما الآخران، فأعطياها من يديهما خاتمين فقالت لهما إن هذا العفريت قد اختطفني ليلة عرسي ثم إنه وضعني في علبة وجعل العلبة داخل الصندوق ورمى على الصندوق سبعة أقفال وجعلني في قاع البحر العجاج المتلاطم بالأمواج ولم يعلم أن المرأة منا إذا أرادت أمراً لم يغلبها شيء.

وسبب حلمي في أن أكون ملكاً هو رغبتي في أن أتمتّع بما شئت من النساء، وفي أن يكنّ لي وحدي فقط، فإذا كانت المرأة تخون زوجها الملك فلن يكون زوجٌ لا تخونه زوجته.

كارثة!

فقد تخونني زوجتي، حتى لو كنتُ ملكاً، وليس في الأفق ما يشير إلى أنني سأصبح ملكاً.

حين كانت تخون امرأة زوجها في السينما كانت تخونه معي، أو

كانت تخونه من أجلي ولي، وهذا ما كنت أحبّه وأرتاح إليه. نساء السينما هؤلاء كلّهن كنّ نسائي، آنساتٍ كنّ أو سيداتٍ، أبتعد عمن لا أريد منهنّ وألتحم بمن أريد. لم تعصَ امرأة منهنَّ يوماً رغبةً لي، يفهمن عليّ "على الطاير"، بالايماء، فأهمّ بالقول همّاً وحسب، إذ لا حاجة بي لإتعاب النفس بالشرح والتبسّط أكثر من ذلك. وكنت أسرّ سروراً لا مثيل له عندما أقرأ أو أسمع، أنّ ممثلة نزلت من الشاشة إلى الجمهور، في فيلم ما. كان هذا يولّع خيالي. كان هذا يعني أنّ الموضوع مطروح، وأن الناس تفكّر فيه، وأنه بالتالي أمر ممكن، وإن على سبيل الوهم. لأنّ الممثلة إن نزلت من الشاشة إلى القاعة فستتوجّه مباشرةً إليّ، وستسرّ بلقائي والتعرّف إليّ وما يتبع. جميع النساء كنّ طاهرات إلا معي، وكان هذا شيئاً جميلاً لا يُنقص من شرفهنّ أو من شيمهنّ، ونمت خمساً وثلاثين سنة يهدهدني هذا الحلم، وإذ بي أفاجأ بأنّ زوجتي التي هي لي بالحقّ والقانون والتاريخ، وبما شئت، ليست لي، وليس لي بالتالي أحد! وإذ بي أفاجأ بأن المرأة التي كانت من نصيبي، قد اختلط دمها بدماء كثيرة.

يا بُنيّ في أيّ رحم أنت؟ طهّرك الله من كلّ رجس!

ثمّ تدّعي فوق ذلك الطهر لتقتلك قتلاً!

نعم تدّعي الطهر!

فلم ترَ ذكر رجل من قبل، و لم تمسّه، و لم ترَ ماءه.

وتدّعي كلّ هذا الادّعاء وفي اللحظة المناسبة أمالته! نعم أمالته لتتقي

ماءه! وهي في الوقت نفسه لا تحبّ الجُماع وكم تمنّت لو أن المرأة تستطيع الحبل بدون أن تضطّر إلى هذه الرياضة المفروضة. كانت دائماً تتردّد عندما أريد وِصالها، وتحاول إقناعي بالعدول، وعندما كنت أصرّ وتدرك أنها لن تستطيع التهرّب، كانت تحتال حتى تستمنيني بيدها، دون أن تخلع شيئاً من ثيابها. لم تكن تحبّني فلماذا تزوّجتني؟ كانت تكرهني ربما كما كانت والدتها تكره زوجها، إنها ابنتها!

يا إلهي!

والدتها، المرأة العجوز، البالغة من العمر عتيّاً، سبعين عاماً أو يزيد، لا تحبّ إلا صباح، واللواتي من أمثال صباح، كالممثلة نضال الأشقر، والكاتبة حنان الشيخ، وهذا له معنى!

نعم هذا له معنى كبير! والبنت طالعة لأمها. كنت أسخر من الذين يتردّدون قبل أن يتزوّجوا بفتاة لا تتمتّع والدتها بفائق الاحترام، لكنّ الأمثال والحكم لا تأتي من عدم. نتبيّن الحقيقة للأسف الشديد بعد فوات الأوان.

أمّا العيب فليس في حبّ أغاني صباح، فأنا أيضاً أحبّ أغاني صباح، لكنّ العيب في طريقة تعبير والدة زوجتي عن طربها لدى سماع هذه الأغاني.

صباح تزوّجت وطلّقت مرّات عديدة، والآن هي في عمر يقارب الثمانين ومتزوّجة من شاب في عمر حفيدها، وأزواجها السابقون

من كلّ الطوائف والملل والهويّات... إنها المثال بالنسبة إلى والدة زوجتي. هذا باختصار ووضوح.

والمرأة العجوز تستعدّ للسهر من أوّل النهار، حتى تتمتّع برؤية صباح وسماعها. إنه أمر مثير للتساؤل. وزوجها نائم، وحذار حذارِ أن يصيبه شيء في هذا الوقت فإنه سيموت لا شك دون أن تدري به، ودون أن يدري به أحد. مرّة قالت له إيّاك أن تشكو هذه الليلة من شيء فإني غائبة! اعتبرني لست هنا هذه الليلة! ومرّة وهي تتفرّج على صباح سعل حتى كاد يختنق فلم تقم إليه.

"شي كتير!"

هذا الطرب الجاهليّ في هذه المرحلة من العمر شيء مخيف، وغير مقبول، مدعاة للتساؤل الكبير، خصوصاً أن المسألة لا تتعلّق بحبّها لصباح وحسب، بل هي صفة عندها من أساس نفسها، لأنها تحب كلّ امرأة خارجة على المألوف بشكل من الأشكال. فهي تحبّ نضال الأشقر، مع أنها لا تذهب إلى المسرح، ونضال الأشقر في الأساس ممثلة ومخرجة، لكنها تحبّها وتتتبّع أخبارها لأنها "شخصيّة قويّة!" وتتصرّف في الأمكنة العامة، وعلى شاشة التلفزيون خصوصاً، بشكل يحسدها عليه الرجال الأقوياء أنفسهم (وهي في الوقت نفسه أمّ وزوجة! تجيب منتقديها).

وعندما سمعت الكاتبة الروائيّة حنان الشيخ تروي علناً، على شاشة التلفزيون، قصّة علاقتها الغراميّة بإحسان عبد القدوس، عندما كان عمرها أقلّ من عشرين عاماً وكان هو في الخامسة والأربعين أو نحو

ذلك، ومتزوّجاً فوق كلّ ذلك وعنده أولاد، بينما هي عزباء، جُنَّ جنونها من الحماسة، و لم تعد تقوى على البقاء مستوية في كنبتها، فأوقعت كوباً من الشاي كان أمامها و لم تعره انتباهاً، فقامت ابنتها تمسح الأرض، وتلملم الزجاج المكسور، وهي ما تزال تستمتع بهذه القصّة مأخوذة منتقلة.

يا ما أحلى أخبار صباح! فصباح على الأقلّ كانت تتزوّج في آخر القصة، أمّا حنان الشيخ فإنها أحبّت لتحبّ!

الفنّ للفنّ! هذا ما تفضّله والدة زوجتي على كلّ شيء آخر! وهي إضافةً إلى هذا الذوق الرفيع، لا تحبّ إلا معاشرة النساء اللواتي يكنّ "غير شكل". وهؤلاء اللواتي ينعمن بهذه التسمية من قبلها، هنّ اللواتي حولهنّ همس كثير، كجارتها في البناية المقابلة، فإنها تحبّها من كلّ قلبها، فكأنّ الدنيا اتضحت في وجهها وأضاءت عندما تراها وتلتقي بها. والجارة هذه، يقال إنّ لها ولداً صبيّاً، ليس من زوجها، بلغ عمره الآن ثلاثين سنة، ويعمل مهندساً في الخليج، وقد دفع تكاليف تخصصه والده الطبيعيّ، يعني العشيق. لا أدري ما إذا كانت والدة زوجتي تتكلّم معها بهذه المواضيع، لكنّها بدون أدنى شكّ تحبّها ويفرح قلبها عندما تراها وتلتقي بها بسبب هذه المواضيع.

- خلّيكي بعد بكّير! تقول لها إذا ما نهضت لتُنهي زيارتها، حتى ولو اقترب موعد الغداء و لم تُعدَّ شيئاً بعد. وهي إذ تدعوها إلى البقاء أيضاً، فمن كلّ قلبها. وتحزن عندما تغادر، وتحسّ بشيء من فراغ، وتغلبها سويداء خفيفة!

نعم! لقد ورثت زوجتي الفلتان من مكان ما، و لم ترث السوقيّة من فراغ.

في المرّة الأولى، قالت لي بعدما ألححت عليها كثيراً، "طيّب، أوكي، تَعَا حتّى غيّرلك زيت!" كأني موتير سيّارة! فهل يعقل أن تجيب عروس زوجها بهذه الطريقة! أم أنها تريد أن تكون كما تحبّ والدتها المرأة أن تكون: شخصية قويّة!

وعندما أحسّت أني على وشك القذف، أدارت رأسَه في الاتجاه المعاكس لوجهها، ففوجئتُ بطريقتها في الوقاية، وأقولها صراحة صُدمتُ، و لم أستطع منع نفسي من التصريح بما شعرت به، لكن بطريقة هادئة وبريئة تماماً، فقلت لها ممازحاً: أنتِ خبيرة في الوقاية! ولّما نظرت إليّ مستفسرة مستغربة، قلت لها مبتسماً، أكاد أضحك، حتى تفهم أني أمزح وحسب، وأنْ لا خلفيّة لكلامي، قلت لها، أنتِ خبيرة في اتقاء الأوضاع!... فأدارت وجهها كعادتها، وأجابتني بعصبيّة لا مبرر لها: "العيش معك صعب!" فقلت لها ما الداعي إلى قول هذا الكلام، فما قلته ليس إلا مداعبة لطيفة! فقالت أيّ مداعبة لطيفة هذه؟ أنت رجل شكّاك وأنا لا أستطيع العيش مع شكّاك إلى هذا الحدّ!

إلى هذا الحدّ؟ أيّ حدّ؟ وعلى أيّ أساس تقول إني شكّاك؟ وهل هذا من الشك أن يريد الإنسان معرفة زوجته معرفة كاملة؟ ثم أخذتُها بالهداوة وطول البال، قائلاً في نفسي، ربما تكون هذه المرأة شديدة الحساسيّة على بعض المواضيع، فأنا رغم أني أعرفها منذ أشهر، لم

أكتشف بعد و لم أفهم كلّ شيء فيها حتى الآن، فخُذِ الأشياء بالرويّة يا رجل، فما هي الآن إلا زوجتك، فأنت مجبر بها بقدر ما هي مجبرة بك، وقلت في نفسي أيضاً أنه يجب عليها أن تفهم هي الأخرى ذلك.

وفكّرت في نفسي وقتذاك: غريب! كيف أدركَتْ كلّ ما قصدتُه بل ما لم أقصده حتى، وما لا يمكن لخيالي أن يبلغه! كيف أدركتْ أنني انتبهتُ أنها أمالت الرأس في اللحظة الحاسمة في الاتجاه المعاكس، حتى تتقي مائي فلا يبلغ ثيابها. وأدركت أيضاً أنني تساءلتُ في سرّي كيف تعرف أنّ ماء الرجل يخرج منه بقوّة ويندفع بعيداً! فهذا لا يُعرف إلا بالتجربة! هذا أمر أنا متأكد منه ولا سبيل إلى إقناعي بالعكس. إنها معتادة ولا شكّ على ممارسة الجنس دون ترك أثر منه عليها. ممارسة الجنس بالطريقة الآمنة. إنها تتقن الجُماع دون بُقع. كبعض النساء، أقصد البعض من نسائنا بالتأكيد، لا نساء ميريل ستريب ومواطناتها، فهؤلاء لا يسترنَ ولا يسترن شيئاً، يصطفلوا فلا دخل لنا بهنّ، فلكلّ بلد زِيّ كما تقول أمثالنا. بل إنها كجميع النساء عندنا، أقصد بعض الفتيات العازبات، اللواتي يرفضنَ حرمان أنفسهن من ملذّات الدنيا، فيُتْقِنَّ ممارسة الجنس بلا أن يتركن أثراً منه على أجسادهن أو على ثيابهن. الفتاة عندما تجامع رجلاً في بيته وشقّته، لا تنام عنده عادة، لأنها لا تستطيع، ولذلك لا يكون لها متسع من الوقت حتى تُغسل ثيابها. بل إنها لا تتحمّم عنده حتى، لأنّ الفتاة لا تتحمّم خارج البيت الذي تقيم فيه، إلا إذا كانت شيطاناً مُشيْطناً! لذلك يعمدن إلى الطريقة النظيفة والآمنة في الممارسة.

ثم إنّ الفتاة تفضّل ألا تتسخ ثيابُها بماء الرجل، مهما كانت تحبه، حتى لا يرى بعينه أثراً منه عليها، لأنها حين تراه يرى بعينه، يصعب عليها أن تُنكر إذا ما دعت الحاجة، وأحياناً تدعو الحاجة، وأحياناً أحياناً كثيرة.

ثمّ أردت التأكد مما إذا كانت زوجتي لا تختلف عن الفتيات العازبات الأخريات في هذا الموضوع، أقصد كبعضهنّ اللواتي يمارسن الشيء في القفا من أجل الستر، فأعيتني الحيلة. لأنني قلت إنها إذا كانت فعلاً لم تدع ابن خالتها يتمادى فيها، فإنها ربما سمحت له استعمال ممرّ الأمان، حيث لا خوف من الحبل ومشاكله الخطيرة، وحيث لا ضرورة للاعتراف بالولوج، أو للرتق في ما بعد. فالإتيان في القفا يمكن السكوت عنه بلا اضطراب كبير في الضمير.

بكتْ أوّل مرّة حاولت أن آتيها في تلك الجهة، رغم أنني لم ألحّ إلا إلحاحاً عابراً. وارتحتُ بمعنى ما لبكائها، فالبكاء هنا قد يكون سببه مسّ الحياء النسويّ، وهذه علامة إيجابية. وأنا لم أكن طاغية معها، بل بالعكس، فكلّ ما كنت أريده هو أن أصدّق قولها ومشاعرها، وهذا كان حلمي، فما هي سوى امرأتي وزوجتي ونصيبي.

ثم قالت لي مرّة وقد فاجأتها بأن دخلتُ قليلاً، إني أجعلها تشعر بالرغبة في الذهاب إلى الحمام. يا للرومنسيّة!

سئلت سيدة مجتمع عربية أثناء مقابلة باللغة العربية، كان يجريها معها صحافيّ عربي، عمّا إذا كانت علاقتها الجنسيّة ريلاكس مع زوجها، فأجابت بكل بساطة وسلاسة، إنها حين تكون مع زوجها في الوقت

المناسب والمؤاتي، لا تشعر إطلاقاً بأي تابو من أيّ نوع كان، بحيث إن زوجها يستطيع أن يأتيها أنى يشاء، وكيفما يشاء، وحينما يشاء. (هنا تبسّمت - هكذا كتب الصحافيّ بين قوسين، وأضاف ما مفاده أن هذه الابتسامة كانت بسبب مشابهة كلامها كلاماً ورد في دعاية على الشاشات التلفزيونية اللبنانية، نفّذتها صبيّة جميلة ومثيرة. وكانت الدعاية لشركة تلفزيون بالكابل، وكانت تريد أن تقول إن الشركة مستعدّة لوصل من شاء من الراغبين، بأفضل المحطّات العربية والعالمية بواسطة الكابل، وذلك حيثما كان يسكن. وكانت الفتاة تقول بدلع باللهجة اللبنانية: وين ما بدّك! كيف ما بدّك! أيمتى ما بدّك! وكانت تجلس أو تقف أو تتمدّد مع كلّ عبارة، بشكل يوحي بأنها هي الموضوع، بجسدها المثير وسحرها الساحر).

ثم قالت السيدة، بكلّ جرأة، ردّاً على سؤال أراد الصحافيّ أن يتذاكى به عليها وأن يحرجها:

من الخلف تقصد؟ ولَمِ لا؟ فهذه ممارسة اعتدتُ عليها مرحلة العزوبيّة، ككثيرات من بناتنا العازبات (!) حتى ألفتها، وصرت أحبّها، فلِمَ لا أحبّها الآن بعد الزواج؟

فهل سيدة المجتمع هذه، مختلفة عن السيدة زوجتي، التي لا تحبّ إلا هذه الأخبار التي تقرأها في هذه المجلات، وبلغتين اثنتين، العربية والإنكليزية. فضلاً عن برامج التلفزيون والأفلام التي تُبثّ عبر السواتل.

وقدّرت أنني لو تأكّدت من أنها كانت تستعمل ذلك المكان، لأوقعها

كذبها في المأزق وانفضحت جميع ادعاءاتها بالعفّة والاتزان.

– من تعتقد أنّي؟ انتفضت مرّة وقالت، عاهرة؟

لكنني قرّرت أن أدرك الحقيقة بهذه الطريقة، بمعرفة ما إذا كانت تلك الطريق الخلفية "مدعوسة" كما يُقال في القرى، أيّ مستعملة للعبور. وسأفاجئها هكذا مفاجأة ستضعضع جميع دفاعاتها، لأن الفتاة تعتقد أن الزوج متى اطمأنّ إلى وجود العذريّة، ينسى ما عداها، ولا يعيره أيّ اهتمام. وهي على حقّ في ذلك. لكنني سأفاجئها.

ورحت أنتظر الفرصة المناسبة حتى أتفحّص ذلك المكان، ليس باللمس فقط، بل بالعين والأنف، ولَمَ لا، بالذوق أيضاً. لكنّ مهمّتي لم تكن هيّنة لأنها كانت، ما إن تشعر بانتباهي يتحوّل إلى هناك، حتى تشتدّ يقظتها. لكنّ قراري كان اتخذ، وليس من قوّة في العالم كانت قادرة على أن تمنعني من تنفيذه.

كنت أعرف، كما يعرف الكثير من الناس، أن الأهل يعمدون في مناسبات معيّنة إلى إعطاء أطفالهم بعض المنوّمات، بكميّات مدروسة لا تؤذي صحتهم، حتى يغفوا، فيكون في مقدور والديهم بالتالي أن يتفرّغوا إلى أعمالهم، أو أن يخلدوا هم أيضاً إلى النوم. وهذا النوع الذي يوضع في البيبرونة بالذات وضعتُه في قنّينة البيرة الباردة، فشربتها زوجتي بشغف وشكرتني، ثم أحسّت بالنعاس وذهبت إلى الفراش، فتبعتها وقلت لها وهي تتمدّد أنني سأهتمّ بها هذه الليلة، حتى تغفو، فقالت لي أن أفعل ما أشاء شرط أن أدعها تنام. وفي هذا

الشرط معنى مضمر عميق. فمعنى أن أدعها تنام هو ألا أجبرها على النهوض للاغتسال. إنّ هذه العبارة هي في الحقيقة مرادف لقولها: لا توسّخني. وللعبارة بالطبع معنى مباشر بريء هو معناها المباشر، أيّ ألا أوقظها لأنها تعبانة. وزوجتي بالمناسبة حين أهتمّ بها بالمداعبة والمسّاج بأنواع المراهم، تعشق ذلك. ومرّة قالت لي: ليتك مدلّكي! (أي لا زوجي!) وكنت أتوسّل هذه الطريقة أحياناً كثيرة حتى أستطيع بلوغ مرادي منها.

غفت إذن زوجتي كالطفل بسرعة، وراحت في نوم عميق، فانصرفتُ فوراً إلى مداعبتها، كالعادة أوّلاً، أمسّد ظهرها وأدلّكه، ثمّ بقيّة جسمها حتى أطراف أصابع رجليها، (كانت تغفو في العادة وأنا أقوم بذلك، بلا حبة منوّمة) ثمّ بعد ذلك ركّزت على الهدف الذي من أجله كانت هذه العمليّة كلّها. كانت غرفة نومنا معتمة نوعاً ما، إلا ما يصلها من أضواء الشارع، التي كانت تخلق جوّاً ناعماً بدون الحاجة إلى إضاءة من أيّ نوع كان، لكنّ هذا الضوء لم يكن يسمح برؤية التفاصيل، فاستعنت ببطّارية صغيرة، من النوع الذي لا يخلو منه بيت بسبب الانقطاع الدائم المفاجئ في الكهرباء، وأضأت تلك المنطقة وأنرتها. فوجدتها موضوع عناية مبالغ فيها، فلم يكن فيها شعرة أو وبرة، وكأنها الجبهة أو الخدّ أو الشفة! فما الداعي؟ إن الجهد الموضوع هناك يفيد بأن المنطقة مقصودة بكل تأكيد، من قبل زوّار ذوي شأن، في حسابها بالطبع. واستعنت بالمرهم المناسب وولجت: لقد تم الأمر بسهولة كليّة، فلم تصرخ و لم تتململ و لم تئنّ، ولم ولا شيء! يا إلهي! إنها

درب سالكة! لم أكن بحاجة للمرهم.

فما معنى هذا؟

هذا عالم كلب خائن شرّير!

لكنني بدل أن أعمل بمفاعيل غضبي، وأضربها بقسوة حتّى أفجّر دماغها، رأيت نفسي عاجزاً عن سحب نفسي من المكان ولملمة أشيائي، وأحسست، وعلى عكس ما كان يمكن أن أتوقّع، بلذّة نادرة جدّاً وهادرة، كما في المرات النادرة التي كنت أحسّ خلالها أنها معي ولي، وأرقت فيها، وملأتها بماء جاءني من أقصاي، من أبعد شيء فيّ، من أمكنة حياديّة في جميع الأوقات. لم يكن في إمكاني أن أقاوم لذّةً أقوى منّي بأضعاف وأضعاف، فلو أنني كنت مهدّداً بالقتل، ولو أنني كنت لا محالة هالكاً، لما أخرجت نفسي، ولما أرقت مائي مرسلاً، في الهواء في لا شيء، أو على منشفة أو على شرشف، أو على ورقة كلينكس ومعها ورقة اليانصيب، التي تنهرني دائماً عندما تراني أرميها (كم تعمّدت أن أمسح فيها مائي. كنت أخشى من حظّها أن تربح هذه السيّارة).

فيها جئت و لم أندم.

طبعاً الكارثة المتوقّعة كانت في اليوم التالي، عندما استيقظت حوالى التاسعة، بعدي بساعتين، احترت أثناءهما ما عليّ فعله، فهل أبقى في البيت أجابه غضبها، إذا انتبهت حين تنهض وتبيّنت آثار الأمس عليها، أم أخرج وأعود بعدما يكون هدأ غضبها، لكنني في الحالتين

عليّ تقديم حساب، وفي الحالتين لن أنجو من غضبها.

فلتغضب!

"شو المشكلة إذا غضبت؟" ألست أنا الرجل بعد كلّ شيء؟ ألا يحقّ لي التمتع بامرأتي أنى أشاء من الليل والنهار ومنها؟ وخصوصاً أنني لم آلمها، لأنها لا تتألم هناك، ولأنها ليست ثيّباً أنى أجيئها. ولا حتى في فمها! فهل الغريب أحقّ بها منّي، وهل يحقّ للغريب الذي لم يكن زوجها أن يتمتّع بها حيث لا يحقّ لزوجها؟ هذا أمر غير مقبول على الإطلاق.

بل المنطقي أن تقدّم لي هي كشف حساب! فكيف ومع من؟ وهل هي أيضاً كانت مع الطريقة الآمنة في الجنس!

وقرّرتُ البقاء في البيت، وانتظرت أن تفيق وتنهض وتتبيّن آثار الأمس، وكان دمي بدأ يجري بسرعة بعدما استرجعت ما شاهدته وعاينته ليلة أمس، وأعدت وصله بما انقطع، وأفاقت وسمعتها تتحرّك، فدخلت لعندها فقالت لي أحسّ وكأنني مخدّرة. ثم مدّت يدها إلى الخلف وتلمّست وتأمّلت، وانتظرتُ أن يبدأ القتال لكنها لم تقل شيئاً، وحاولت أن تنام من جديد، لكنها نهضت أخيراً وذهبت إلى الحمّام، فحاولتُ الدخول معها مع أنني أعلم أن هذا أمر لا يمكن أن تتحمّله، لأن الحمّام في مبدئها مكان خاص جدّاً، وخصوصيّته لا تمسّ، لكنني كنت أفتّش في الحقيقة عن الشرّ، و لم يكن في وسعي أن أتناسى وأجعل الأمر يمرّ بهذه البساطة، بدون أن نتوقف معاً عنده، لنضع النقاط واضحةً على الحروف. فقلت لها بعدما تردّدت كثيراً في ما أقول كفاتحة للشرّ أو كفاتحة للموضوع، لأن النقاش إذا تحوّل إلى الشرّ

فهذا لن يكون خطأً مني، بل خطأ منها هي التي لا تستطيع أن تبدأ نقاشاً، في المواضيع الحسّاسة والجوهريّة بالنسبة إلى حياتنا الزوجيّة، إلا وتنهيه بالعييط والصراخ. وبعد تردّد إذن قلت لها: لقد ملأتُك حتى عوّمتك ليلة أمس وأنت نائمة! وأدركتُ وأنا أتلفّظ بهذه العبارة قبحَها وسوقيّتها، وأدركت أنه كان عليّ التروّي أكثر في انتقاء الكلام، قبل رميه كيفما كان بهذا الشكل، كان من الأفضل أن أقول لها بأنني أمضيت معها لحظة رائعة ليلة أمس، وكان يمكن أن ألمحّ تلميحاً إلى ما قمت به كأن أقول مثلاً: ما من مكان فيكِ إلا طيّب كالعسل! أو أن أقول: أنتِ كالفاكهة من أيّ جهة يتناولها الإنسان تطيب! لكنها، أيّ العبارة الشرّيرة، خرجت منّي كأنْ وحدها، كأنّها انسلّت انسلالاً بإرادة غير إرادتي. ثم انتظرتُ ردّ فعلها عاصفاً يقتلع البنايات الراسخة، واتخذت الاستعدادات اللازمة كافّةً، خصوصاً أنني قرّرت منذ فترة أن أستعيد المبادرة شيئاً فشيئاً، وألا تبقى الأشياء فالتةً خارجةً عن إرادتي بهذا الشكل غير المقبول على الإطلاق، لكنّ ردّ فعلها لم يجئ كما توقّعته، بل أسوء بما لا يقاس. جاء ردّ فعلها نوعيّاً مختلفاً، سيّارةً مفخّخة محشوّة حتى العنق بالقنابل الذريّة والجرثوميّة. قالت:

- وهل أعجبتك الرائحة؟

يا إلهي!

هل يوجد في الكون امرأة سوقية أكثر منها؟ هل يوجد في الكون امرأة سامة مسّمة أكثر منها؟ هل يستطيع بشريّ أن ينحدر في الانحطاط أكثر منها؟

ليس لسوقيّتها قرار، ولا لانحطاطها. إنها امرأة شرّيرة. ورغم ذلك قلت، عملاً بقناعتي الدائمة بأهمّية الزواج، وبأنه لا يجوز لنا أن نحوّله إلى قميص نخلعه عنّا حين نتضجّر منه: عليّ أخذ الأمر بسكينة في النفس، ورويّة واتساع صدر ورأفة، فما هي سوى زوجتي رغم كلّ شيء، وما أنا سوى زوجها رغم كلّ شيء، إنها لباسي وفراشي وسكنى ملذّاتي. ففكّرت في جواب لا يستفزّها، بل يُطلق الحوار الموصل إلى نتيجة، لأنه في الأخير الأخير هذا بالضبط ما أريد. أريد أن أصل إلى نتيجة. أريد أن أعرف من هو بالتمام والكمال هذا الكائن الذي بين يديّ، والمَسمِيّ عليّ من الآن وحتى يوم القيامة. أريد أن أعرف ما الذي يخبئه عنّي خوفاً مني أو حياء. يؤرقني الخوف من أن ألتقي برجل عرفها كما عرفتها أنا وربما أكثر، ويؤرقني أن يكون هو يعرف من أنا، وأنا لا أعرف من هو، فيضحك عليّ في سرّه، ويهزأ منّي ويتشاوف عليّ، لأنه بكل بساطة رفض أن يتزوّجها، بعدما عاشرها معاشرة الزوج للزوجة أو ما يقرب من ذلك؟ لأنه بالضبط عاشرها بهذا الشكل، ولأنها بالضبط قبلت أن يعاشرها بهذا الشكل، ولأنها كانت هيّنة بين يديه مهما تمنّعت في المرحلة الأولى. لذلك رفض الزواج بها، فالتي تقبل أن يتمتّع بها رجل قبل الزواج بالشكل الكامل، فإنها تقبل ذلك مع كلّ رجل آخر غيره. فما الذي تتركه حينذاك لزوجها والد أولادها؟ أنا رجل وأعرف منطق الرجال، وهذا هو منطق الرجال، إنه المنطق ذاته الذي حكم تصرّفي مع الفتيات طوال حياتي، وقد أبلغتها منذ لقاءاتنا الأولى عن هذه الأمور، وأخبرتها عمّا كان لي من تجارب في هذا الخصوص، ورويت لها الأحداث بتفاصيلها، حتى يكون موقفي

واضحاً لها، وتعمّدتُ إخبارها بشكل خاص، كيف كان تصرّفي عند لقائي الفتاة التي مارستُ معها الجنس بشيء من الحرية في الأمس، فقط، ثم أخبرتها كيف التقيتُ بها بعد زواجنا وكيف كان تصرّفها غريباً عجيباً. وكانت هي متزوجة ولها ولدان. وعندما التقيت بها احمرّت وتلفّتت حولها قبل أن تسلّم عليّ بالتحيّة لا باليد، لأنني لم أمدّ يدي نحوها ولا هي مدّت يدها نحوي، لكنها ظلت تبتسم وتكاد تضحك طوال فترة لقائنا التي لم تدم أكثر من دقيقتين أو ثلاث دقائق. قالت لي: نيّالك! ما زلت عازباً. ولا مسؤوليات لديك! ليس عندك أولاد تتحمّل مسؤولياتهم! قالت ذلك وضحكت ضحكة عصبيّة كأنها تسعل. فقلت لها وقد جرى بيننا التيار بسرعة وخفّ توتّري وكذلك خفّ توتّرها، وقد أنِست لها وأنِستْ لي: أنتِ نادمة؟ فقالت لا ولكن... فلم أدعها تجيب بل سألتها ألستِ مبسوطة مع زوجك؟ فقالت: بلى ولكن! فسألتها هنا: لو تزوجنا معاً لكان في رأيك أفضل لك؟ كنت أسعى إلى أن أقيم تواطؤاً بيني وبينها على زوجها، كمقدمة ربما لعلاقة لطيفة خارج سجن الزواج. فاحمرّت هذه المرأة واخضرّت واصفرّت، وتوالت عليها الألوان جميعها، وطفح الدمع من عينيها وانفجرت بالبكاء وقالت لي في ما يشبه الصراخ المخنوق: أتظنّ نفسك أحسن من زوجي! فتلفتُّ يميناً ويساراً لأطمئن إلى عدم وجود أحد حولنا، وانصرفتُ وأنا أقول لها لا! لا! لا أقصد ذلك بل كان مجرد كلام!...

– لماذا قلت ذلك؟ قالت زوجتي، هل أردتَ أن تقدم نفسك لها، على أنّك مخدّة أكيدة، تستطيع أن تلقي برأسها عليها من تعب الزوج

الذي لا يحتمل، والأولاد الذين يشكلون مسؤولية ليس من السهل تحمّلها، بالنسبة إلى الناس الحسّاسين المرهفين، الذين يعطون كلّ ما يملكون وأكثر إلى أولادهم؟ قمتَ إلى تعزيتها إذن! قالت زوجتي. إنّك لرجل طيّب، عميق التفهّم لما تعاني منه النساء الأمهات.

وبعدما اطمأننت إلى أنني ابتعدت عنها وغابت عنّي، تساءلت لماذا انفجرت هكذا بالغضب هذه المرأة، وكانت سعيدة عندما التقينا، وكان ذلك واضحاً على ابتسامتها التي عكست مشاعرها بصدق. ثم تساءلت عمّا قصدته بقولها: أتظنّ نفسك أحسن من زوجي؟ فهل تقصد أنني سيئ مثله أم أنه بالفعل أفضل منّي وأنها سعيدة معه؟

أمّا ما أردت أن تعرفه زوجتي من هذه القصّة فهو أوّلها، وهو القسم الذي أردت التوقّف عنده. فأوّل ما تعرّفت إلى هذه الفتاة، أحسست أنها مشدودة إليّ، وكنت أنا أيضاً أحسّ بشيء ما تجاهها لكن ليس بالدرجة ذاتها. وهذه سياسة كانت عندي، ألا أنساق وراء مشاعري تجاه فتاة لئلا تقودني هذه المشاعر إلى حيث لا أريد. وصرنا نتلاقى في المقهى مع الأصحاب أوّلاً ثم وحدنا في ما بعد، إلى أن دعوتها مرّة عند أحد الأصدقاء الذي أعطاني مفتاح شقّته وغاب عنها حتى يفسح لي المجال فوافقت، وجرى ما جرى بيننا، ولكن طبعاً على طريقتنا وعادات بلادنا، وليس على طريقة أهل الغرب والسينما التي تجيئنا من عندهم، فقد كانت بالطبع عذراء، لكننا تعرّينا وكانت لقوّة شبقها غارقة في العرق، وبلغنا بعد دقائق على هذا الاحتكاك العاري. وبعد قليل عدنا من جديد، وهذا أمر طبيعيّ، لكن الأمر الذي لم يكن طبيعياً، والذي لم أكن أتوقّعه على الإطلاق، هو أن

تبادر من تلقاء نفسها إليه وتستقبله بفمها، ثم بعد لحظات تروح في الشهيق ليصدر من أنفها صوت يشبه الجئير.

لقد بلغت وهي تستقبلني بفمها! فصدمتني!

بعض الحياء أيّها الناس أَجلَبُ للشوق واللذة.

وفي اليوم التالي تماماً على هذا اللقاء ذهبت إلى المقهى لأجدها سبقتني إليه، وهي في أحلى حالاتها وفي أجمل ثيابها وعلى أحلى طراز، وكأنها في يوم عرسها بالذات. كانت لابسةً على الفاصلة. فتجاهلتُها وجلستُ على طاولة وحدي بعيداً عنها، بينما هي كانت على طاولتها وحدها ولم يكن معها أحد. ومنذ ذلك اليوم وحتى اليوم الذي التقينا فيه في الطريق بالصدفة، أي بعد ست سنوات أو سبع، وبعد زواجها وإنجابها ولدين، ورغم أننا كنا نلتقي من وقت لآخر خصوصاً قبل زواجها، لم تعد تكلّمني إطلاقاً، ولم تعد توجّه لي كلمةً واحدة. لا سلام ولا كلام. لم تعد تراني حتى ولو كنّا معاً وحدنا، مضطّرين، في مكان واحد، كالمصعد مثلاً، أو على الطاولة ذاتها. كأني بالنسبة إليها لم أعد من هذا الوجود.

لم أجلس معها في المقهى في اليوم التالي – وهذا ما أريد أن تعرفه زوجتي – لأنني كنت أعتقد أنها كانت قبيل "علاقتنا"، على علاقة بأحد رواد المقهى الذي كنت لا أحترمه ولا أقدّر فيه شيئاً (لم يكن غيّر شيئاً لو كنت فَرَضاً، أحترمه) فخفت أن يأتي ويفاجئنا معاً، وهي على هذه الزينة وفي هذا اللباس، فيفترض أن بيني وبينها شيئاً، وقد يظنّ أنه شيء جدّي أيضاً، فيتشاوف عليّ على أساس أنني أسعد بفضلاته!

بل بفضلة من فضلاته! لأن فضلاته كثيرة.

وقراري أنا لم يتغيّر من زمان، وهو ليس في الحقيقة قراراً، بل أمر طبيعيّ كما التنفّس طبيعيّ، وكما الطبيعة طبيعيّة، وهذا القرار هو التالي: لن أتزوج إلا فتاة عاقلة، أقصد عاديّة، أي لا تاريخ لها حافلاً بالفلتان. أما إذا كان لا بد وأن أتزوّج من واحدة سبق أن أقامت علاقة (أقول علاقة لا علاقات)، وعلاقة ضمن حدود المعقول فلن تكون من الجوّ الذي أتحرّك فيه، حتى لا أضطر إلى لقاء هذا الشخص كلّ يوم. خصوصاً أنها قد تكون معي.

لا!

هذا غير ممكن.

أحد الأصدقاء وهو أستاذ أدب عربيّ في ثانوية في رأس بيروت، قال لي بعدما خطب إحدى تلميذاته: أهمّ شيء بالنسبة إليّ، أنها لم تعرف رجلاً قبلي، وأنني أوّل رجل تعرّفتْ إليه. أفتريدني أن أعلّمها قول الشاعر أبي تمام المدرج في البرنامج:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحبّ إلا للحبيب الأوّلِ

كم منزل في الأرض يعشقه الفتى

وحنينه أبداً لأوّل منزل

وأن أكون الحبيب الثاني أو الثالث، أو ربّك عليم أيّ رقم أكون؟ أنا

لست متزّمتاً إلى هذا الحد، فالفتاة لم تُخلق للرجل الذي تتزوّجه، والقول بخلاف ذلك تعسّف غير مقبول، فلا بدّ أن تتعرّف في حياتها إلى شباب، وقد تتعرّف إلى شابّ تغرم به إلى حدّ اللقاء الجسدي، هذا أمر طبيعيّ جداً ولا اعتراض لي عليه، لكنّ هذا اللقاء الجسديّ يجب أن يبقى في حدود المقبول. أمّا أن تتناول رجولته بفمها بدون إشارة أو إنذار، فهذا أمر لا أستطيع أن أقبله، ولا أستطيع أن أتحمّله، ولكنني في الوقت نفسه لا أدعو إلى إقامة الحدّ عليها، أو مقاصصتها بأي شكل من الأشكال. إنها حرّة، وأنا كذلك حرّ. قد أقبل أن تحدث ممارسات كهذه مرّة أو مرّتين أو من وقت لآخر بطلب من الشاب أو بإصرار عنيد منه، لكنْ أن تكون رغبةً ذاتيّة، وصفة دائمة متأصّلة، فهذا ليس مزاجي الشخصي، ولا مزاج الناس في بلادنا بكلّ تأكيد.

إن جسد الفتاة يجب أن يتسلّمه الزوج كاملاً متكاملاً. هذه هديّة ثمينة للزوج، تظلّ تؤثّر فيه إيجاباً على دوام الأيّام، مما يمتّن الروابط بينهما كزوج وزوجة، فلا تتراخى أو تنقطع.

وبفخر تبقى زوجته على الدوام، مرفوعة الرأس غير مضطرة أن تشيح بوجهها، عندما يجري الحديث على العفّة قبل الزواج. ويكون احترام زوجها لها من قناعة لا من عطف أو ترجيح.

عندما طلبتُ من زوجتي أن تتناولني بفمها أوّل مرّة رفضتْ، وقالت:

- لا!

ولم تقل:

- لا أحبّ ذلك!

فأغرقتني في الحيرة والشكّ، فلو قالت: لا أحبّ ذلك! كنت فهمت أنها لا تحبّ هذا الأمر عامةً وعلى الإطلاق، لكنها في قولها: لا! وحسب، تركت المعنى غامضاً وغير محدّد، لأنّ هذه اللاّ قد تعني أنها ترفض ذلك معي وحسب! إنّ في هذه التفاصيل الدقيقة يكمن كلّ المعنى.

وعندما طلبت منها مرّة ثانية بعد أيّام وقالت: لا! لم أتناسَ الموضوع كما فعلتُ في المرّة الأولى، بل أردت مناقشتها لأعرف السبب. وهذا من حقّي. ولم يكن قصدي من المناقشة ممارسة الإرهاب عليها، فأنا من الناس الذين يفهمون هذه الأمور ويستوعبونها، أي أن ترفض امرأة حتّى ولو كانت زوجتك، أن تكون عبدة لك في الفراش، فهذا أمر إنساني لا أناقش فيه، بل أقول أكثر من ذلك: عندما رفضت أن تنفّذ ما طلبته منها شعرت بالرضى العميق! فأنا أحب في المرأة الحياء، وهذه صفة أعرفها فيّ. لكن ما شغل بالي أنها أجابتني في المرّتين: لا! ولم تضف شيئاً، ولم تقل مثلاً ما أفهم منه أنها لا تحبّ ذلك بشكل عام، وأنها لا تتحمّله بشكل عام. فلو قالت شيئاً من هذا لكان اطمأنّ قلبي، أمّا كونها لم تقله عفواً من تلقاء نفسها، فقد يكون ذا دلالات خطيرة، وخصوصاً أنني لست رجلاً أميّاً في هذا الموضوع بالذات، فقد قرأت وسمعت أنّ نساء يقمن بهذا الشيء مع رجال دون رجال، بل قد يقمن به برضاهنّ وبمبادرة منهنّ، مع رجال ليسوا أزواجهنّ،

كما حدث معي شخصيّاً، بينما هنّ يعجزن فعلاً عن القيام به مع أزواجهنّ، وهذا ما طيّر عقلي!

لا يمكن أن أتحمّل فكرةً كهذه: أن تكون قامت به مع رجل آخر، وألا تستطيع القيام به معي الآن، أنا زوجها وأبو أولادها. لا يمكن أن أتحمّل فكرة كهذه، مستحيل، لأن هذا الرفض الجزئيّ البسيط من قبلها، ربما كان يعبّر عن رفض جوهريّ جوّاني عميق، لذلك أجبرتها عليه في المرّة الثالثة، بالقوّة الصريحة، نعم بالقوّة بلا تردّد، لأن الزوج يجب أن يثبت لامرأته أنه رجل، ولو مرّة واحدة، خصوصاً إذا كان هذا الإثبات لا يشكّل ضرراً ولا يؤذي، ولا يترك أثراً ولا شيئاً من هذا. ثم إنّ الرجل يجب أن يقتحم زوجته في منطقة من هذه المناطق التي تغار عليها غيرة خاصة، لتشعر أن هذا الزوج رجل بكلّ معنى الكلمة، وأنه قادر، وأنّ وجوب طاعته مبرّرة ومبنيّة، ولتشعر خصوصاً أنها له، وأنها في الأخير بمعنى ما ملكه. والمرأة ذاتها تتطلّب ذلك في أعماقها، لأنه أمر هي في أمسّ الحاجة إليه. وإن الله خلق الرجل كائناً أقوى من المرأة لغاية، وإنّ الغاية هذه تنجلي في مثل هذه المناسبات. إن الله بكل تأكيد لم يخلق شيئاً عبثاً.

تمنّعتْ كثيراً قبل أن أجبرها على ذلك، وحاولت الإفلات، لكنني كنت اتخذت القرار، ولم يكن هناك قوّة في العالم تستطيع التأثير عليّ، وليِّ إرادتي، وكان رهاني كبيراً جدّاً ويستحقّ كلّ تضحية، فإمّا أن تقبضني عن جدّ أني زوجها، وإما أن تظل على حالها، تأخذ الأمور بالخفّة ولا تطيع لي أمراً، وتنام ساعة تشاء عند أهلها، وتمضي أيّامها هناك، ولا تأخذ رغبة لي في الحسبان. وبلغ غضبها

أقصاه، عندما بلغتُ قبل أن أسحب نفسي منها كما ودّت أن أفعل.
لم تعضّني لأنها كانت تعلم علم اليقين بأنني سأبجّ دماغها بجّاً لو
ركبت رأسها وأخطأت هذا الخطأ المشين، لكنها بدل ذلك قامت بما
هو أعظم وأدهى، فما إن تراخت قواي إثر خروج مائي منّي، حتّى
نهضتْ كالمجنونة، وأطبقت فمها على فمي لا لتقبلّني، بل لتُذيقني
منيّي!

- ذُقْ نفسَك! قالت. ("دُوءْ حالك!" بالعاميّة!)

يا إلهي!

هذه الساقطة ابنة الساقطة وسليلة الساقطات!

أرادت أن تنتقم منّي، فحاولتْ أن تدلق في فمي، كلّ ما في فمها من
ماء خلقه الله لها، وصنعها الله لتستقبله، وتكون مصبّاً له.

أحياناً أقول، إن كثيراً مما جاء في الكتب القديمة عن الرجل والمرأة
حقّ! وإننا، نحن أبناء هذه الأيّام، كثيراً ما نظلم هذه الكتب حين
نحكم عليها اليوم بخفّة وبلا رحمة، لأننا لا نقيم اعتباراً في حكمنا
هذا، لكونها مبنيّة على أساس كيف خلق الله الطبيعة. فقد جاء في
واحد من هذه الكتب، أنه لمن الخطأ أن تعلو المرأة الرجل لأنّ ماء
الرجل بكل بساطة، بطبيعته، وككّل نوع سائل، يجري من أعلى
إلى أسفل. فأحسن أنواع الجُماع، أن يعلوَ الرجل المرأة، مستفرشاً
لها، بعد الملاعبة والقبلة، وأردأ أشكاله، أن تعلوَ المرأة الرجل، وأن
يجامعها على ظهره، وهو خلاف الشكل الطبيعيّ، الذي طبع الله

عليه الرجل والمرأة، بل نوع الذكر والأنثى. فالمرأة مفعول بها طبعاً، وإذا كانت فاعلة خالفت المقتضى.

إنها لحكمة رائعة ببساطتها الظاهرة!

هناك أشياء تبقى ثابتةً مهما تقدّم الإنسان، ومهما تغيّر الزمان والمكان، لكن المهمّ أن نجيد التأمل فيها لا أن نأخذها على ظاهرها. إنّ احترام المرأة واجب لا جدال فيه، وإنّ تمتّع الزوج بزوجته، والزوجة بزوجها، أمر لا جدال فيه هو الآخر أيضاً، لكن في حدود مرسومة يراها بوضوح من أراد أن يرى. إن الرجل والمرأة إذا كانا منسجمين، يحقّ لهما التمتّع بما يشاءان، وأنّى يشاءان وكيف وإلى آخره، ولكنّ العين يجب أن تبقى يقظةً على الحدود المرسومة، حتى وإن لم تحترم هذه الحدود، إنما على الإنسان أن يعرف على الأقلّ أين أصبح منها وكم ابتعد عنها أو اقترب منها. فمهما تغيّرت الأزمنة، وحلّت عادات وتقاليد محلّ أخرى، يبقى الرجل رجلاً والمرأة امراةً. وعلى المرأة دائماً وأبداً أن تستجيب لزوجها عندما يناديها، ويجب أن تطيعه في الأمور الحاسمة، حتى ولو كانت هذه الطاعة مكلفةً نفسيّاً بالنسبة إليها، لأنّ هذه الكلفة النفسيّة تُعوّض بسرعة، حالما ترى المرأة زوجها عاد إلى حلمه ورأفته وعفّته. وإنه لا بدّ سيعود. أمّا أن تقفز إليه كالمجنونة، لتثأر منه بأن تسكب في فمه ما في فمها، منه، بالقوّة والقهر، فهو أمر غير مقبول على الإطلاق.

عندما بلغ فمي بعض ممّا في فمها، صدمني مذاقه وطعمه ورائحته، وأحسست لا بالوسخ بل بشيء أبعد منه وأعمق، كأنه الدنَس،

وأحسست بأنني عرضة للاغتصاب، فبصقتُ ما في فمي عليها ودفعتها عنّي، فوقعتْ على الأرض وانوجعت، ثمّ نهضت وخرجت من البيت مغلقةً الباب وراءَها بقوّة، بدون أن تقول لي إلى أين، لكنني عرفت بالطبع، فإلى أين تذهب في حالة كهذه، إن لم يكن عند أمّها التي خلّفتها على شاكلتها. فليس غير والدتها من يسمع لها ويطيّب خاطرها ويتآمر معها. وعلى كلّ حال إن والدتها تعشق هذه المواضيع بشكل عام، فكيف بها وهي تطال ابنتها!

وعندما سألتُ مرّة زوجتي عن هذه المحبّة التي تجمع والدتها بصديقتها التي تبهج قلبها أجابت: إنّ الطيور على أشكالها تقع! فتعجّبتُ وأبديت لها هذا التعجّب موضّحاً لها سببه أيضاً، فأجابت بحكمة واختصار: لم يفتح أحد قلبها ليعرف ما فيه! لكنني أجبتها بأنّ هناك دلائل على ما يبدو حسيّة جدّاً، فقالت: لا أحد يعرف ما في قلب الإنسان. حتى ما يفعله الإنسان أحياناً لا يدلّ عمّا في قلبه، فدهشتُ للحكمة العميقة التي أبدتها زوجتي وحرت في ما أقول وسكتُّ! وسكتُّ في الحقيقة لأنّي أحسست في قلبي أنّها بهذا الكلام تدافع عن نفسها، أكثر مما تدافع عن والدتها أو عن صديقة والدتها. لأنّ من عادتها وفي طبعها، أن تأخذ كلّ شيء على أنه يعنيها وموجّه لها وضدّها مباشرة، فعندما سألتُها مثلاً ذات مرّة، وكنّا بعد لم نتزوّج، عن سبب هذا الهوس بصباح، وكنت أقصد بسؤالي والدتها، فأجابتني:

– وما دخلك بي!

تاري هي أيضاً تحبّ صباح، و لم أكن أدري أنها تحبّها إلى هذا الحدّ!

أنا لا أدّعي أنّي من عبّاد الله الصالحين، وأنا أعرف أنه لا يحق لي أن أدين أحداً، ولكن من له ذرّة من عقل يفكّر بها تفكيراً سليماً، لا يمكن أن يمنع نفسه من ربط هذه الصفات بعضها ببعض واستخلاص مغزاها! فوالدتها فوق كلّ ذلك لا تصليّ ولا تصوم ولا تذكر الله. إنّ هذه الصفات مجتمعة في سيّدة مسنّة لا في رجل، مؤشّر بدون شكّ، ودليل.

فبين زوجتي وبين والدتها شبه كبير. وأقول صراحة أنها حين هجرت البيت وتركتني وحدي، كنت أقول في سرّي، رغم كلّ الألم الذي تألّمته، أنّ هناك شيئاً إيجابياً في هجرها لي ومن الطلاق بالذات، وهو أنها لن تشيخ في بيتي، ولن تتحوّل لتصبح في هيئة والدتها المقرفة. كان شيئاً كالهمّ على قلبي، وكالكابوس، حين كنت أتصوّرها وقد كبرت في السنّ وتحوّلت إلى ما والدتها عليه الآن. وخصوصاً أنّ عِظم الشبه بينهما يجعل من يراهما لا يشكّ لحظة في أنه أمام ابنة ووالدتها.

إنّ هذا الشبه الشديد من حيث الشكل، لا يمكن ألا يكون مؤشراً لشبَه داخلي، ولصفات مشتركة بين الاثنتين. وهذه الرغبة الدائمة في إقامة الابنة عند والدتها ليل نهار دليل. ثمّ إنّ الاتفاق التامّ بينهما، الذي تجلّى بأبهى صوره بعدما هجرت بيتها، كذلك هو دليل خير دليل. بل أستطيع اليوم الكلام على تآمر بينهما بكل راحة ضمير، وليس على اتفاق وحسب. إنهما يتآمران اليوم عليّ، فعندما أتّصل

للكلام مع زوجتي، تجيبني الوالدة بخبث: ما زالت خارجة! أو بعد نصف ساعة تعود! وتحاول التصرّف بشكل يوحي أنها على الحياد، وأن ما يجري بيني وبين ابنتها أمر يخصّني ويخصّ ابنتها، وأنها رغم ذلك تسعى جاهدةً حتّى تصطلح الأمور بيننا، وحتى تعود ابنتها إلى بيت زوجها. لكنني عندما اتصلت مرّة وقالت لي فوراً أن ابنتها على البحر، أصابني الوجوم، ولمّا رأتني توقّفت عن الكلام، همّت بإقفال الخط، فقلت لها انتظري لحظة، ثم بعد لحظة قلت: أيحق لها التصرّف بهذه الخفّة، فقالت: هذا أمر لا يخصّني، وحتّى إذا كنتُ راغبة في منعها فلا أستطيع. أنت تعرف مثلي وأكثر مني كم أنها تحبّ البحر، وتعرف أكثر منّي أنها ظلّت على عادتها، في أحلك ظروف الحرب والمنع والضيق: ألا تذكر؟ فقلت لها: ليس هذا ما يهمّني، بل ما يهمّني هو الذي في بطنها! فسكتتْ.

- آلو؟

- أسمعكَ، ولكن ماذا تريدني أن أقول؟

غريب كيف تتصرّف هذه الوالدة! لأنّ الوالدة، أيّ والدة، لا تلزم الصمت عادة في موضوع اختلاف ابنتها مع زوجها، بل في موضوع خطير كهجر ابنتها منزلها الزوجي، فكيف بمسألة الحمل، فابنتها حامل! وكانت هي الأولى التي اطّلعت على الحدث، عندما اتصلت بها ابنتها وأخبرتها وهي تبكي أنها انقطعت عادتها، ووصفتني وقتَها بأنني شرّير، وصدّقت أنا الذكيّ الفطين براءة نفسها!

- أريدكِ أن تقولي لها إن ما في بطنها ليس ملكاً لها وحدها!

- ...

- آلو؟

- نعم أسمعكَ ولكن ماذا أستطيع؟

والغريب أيضاً في هذه الوالدة، أنها لا تتدخّل، صراحة على الأقل، في مسألة ما ادَّعي أنه محاولة منّي لاغتصاب خيّاطة البرادي. لم تتدخّل في هذه المسألة لا سلباً ولا إيجاباً، مع أنها ليست امرأة كتوماً، بل تتدخّل دائماً في أمور لا تعنيها. كانت مثلاً تتدخّل لمصلحة ابنتها، عندما كنت أحاول إقناعها بالعودة إلى البيت، لننام فيه، كانت تختلق الأعذار بخبث حتّى نبقى عندها، وكانت جميع أعذارها واهية من نوع: تأخّر الوقت الآن، أو هذا البيت - أي بيتها - يخيفني بلا أولاد، والليلة على التلفزيون برنامج جميل فابقوا احضروه... وأشياء من هذا القبيل.

لكنّ ملاحظةً واحدةً بلغتني مؤخراً منها عبر والدتي. لقد بدأت والدتي تدخل على الخطّ، وبات من المستحيل عليّ إبقاء الأمور خارج معرفتها واهتمامها.

نقلت لي والدتي عن والدتها أنها قالت: هل كُتِبَ على المرأة أن تتحمّل كلّ هذا العذاب حتى يكون لها رجل! وأعتقد أن هذا القول صحيح عنها، لأنها ليست، وكما خبرتُها جيّداً، من اللواتي يعتقدن بأنه على المرأة أن يكون لها زوج مهما كان الثمن! أنا

متأكّد من أنها نادمة على زواجها ندماً لا يوصف، وهي تصرّح بأنها ليست شديدة التعلّق بزوجها، فقد كانت تقول لصديقتها الحميمة، على مسمع منّي، إنّ زوجها لم يكن يبادر إطلاقاً، بل كان يرمي نفسه على الفراش، ويُغمض عينيه تاركاً إيّاها تفعل ما تشاء: تزوّجتُ ولداً ولم أتزوّج رجلاً! لم تحسّه يوماً رجلاً بكل معنى الكلمة، كان "طيّوباً"، طيّب القلب كريماً خدوماً إنساناً صديقاً، وكل ما تريدين، لكنه لم يكن رجلاً. وكانت دائماً تضيف: جيلنا تحمّل! وأخبرَتها بلا خجل، وهي تضحك كالساقطة في الأفلام الرفيعة المستوى، أنه كان عندما يبلغ، يعوي منادياً أمّه مستنجداً بها، بصوت منخفض، كأنه يخاف أن يسمعه أحد. كم كنت أتمنّى أن يجعلني أشعر بأنني امرأة. وكم كنت أنا شخصياً أشعر بأنني امرأة. لم أكن امرأة بل نساء. كنت دائماً كالجائعة إلى وجبة دسمة، وكان لا يُقدِّم لي إلا لقمة عابرة.

لا بدّ أن يكون شعورها هذا نحو زوجها، قد انتقل بالعدوى إلى ابنتها، التي لا تعير والدها أيّ اهتمام يستحقّه كأبٍ ووالد، ولا تكنّ لزوجها المشاعر التي يستحقّها كزوج.

أنا لا أصدّق أنها لا تتدخّل مع ابنتها في أمر حملها، ولا يمكن أن أصدّق أنها تترك ابنتها تتصرّف على هواها، وتتركها تذهب إلى البحر وتعرّض الطفل الذي في بطنها للخطر، فهل تتخذ الاحتياطات اللازمة؟ فأنا الذي بلا تجربة في هذا الميدان، أعرف أنّ المرأة الحامل يجب أن تكون دائماً حذرة، فكيف هي إذن وقد أنجبت عدّة أولاد. فماذا في الأمر إذن؟

ماذا في الأمر؟

في الأمر بكلّ بساطة أنّ زوجتي أجهضت حملها!

يا إلهي!

لم تنكر خالتي أنها على علم بأن زوجتي حبلى. لكنها التزمت الصمت عندما سألتها لماذا إذن تتصرّف هي ووالدتها بهذه الطريقة، عندما أسألهما عن الموضوع، كأنني أسأل عن أمر لم يسمعا به إطلاقاً. فإلى متى يمكن أن تدوم الحال على هذا الشكل. إنها الآن في نهاية الشهر الثاني من حملها، فإلى متى ستظلّ تحاول أن تخفيه؟ ألم يبدأ بطنها بالاستدارة بعد؟ ألم يزدَدْ وزنها؟ ألم يقل لها أصحابها إن الحبل يناسبها؟

لا لم يحدث شيء من هذا، لأنها أجهضت حملها! هذا ما باحت به لي خالتي أخيراً، بعد أن كتمته عنّي دهراً وثلاثة أسابيع. لقد أجهضت ثم ارتاحت عدّة أيّام لتستعيد قواها. ثمّ سافرت بعد ذلك عند إخوتها إلى الخليج.

يا إلهي!

لم يكن يشغل بالَ خالتي هذا الأمر، أقصد الإجهاض، بل كان يشغل بالها حلّ المسألة العالقة بيني وبين شقيق الخيّاطة. فكانت كلّ مرّة أتصل بها، تسألني عمّا إذا كنت أنهيت المسألة هذه، وكنت أطمئنها دائماً، لكنها لم تكن لتطمئنّ إطلاقاً. وكانت مصرّة هذا الإصرار، إلى حدّ أنها باتت مستعدّة لدفع تكاليف التسوية، مهما كانت قيمة هذه التكاليف.

صدر للمؤلف:

- **حين حلّ السيف على الصيف**، شعر، مع ترجمته إلى الفرنسيّة (جمال الدين بن شيخ)، الفارابي، بيروت 1979.
- **لا شيء يفوق الوصف**، شعر، منشورات لبنان الجديد، بيروت 1980.
- **أي ثلج يهبط بسلام**، شعر، دار مختارات، بيروت 1993.
- **أنسي يلهو مع ريتّا – كتاب البالغين**، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر، بيروت 1983. ترجم إلى الأسبانية.
- **المستبدّ**، رواية، دار أبعاد، بيروت 1983. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001.
- **فسحة مستهدفة بين النعاس والنوم**، رواية، دار مختارات، بيروت 1986. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية.
- **أهل الظلّ**، رواية، دار مختارات، بيروت 1987. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001. ترجمت إلى الفرنسية.
- **تقنيّات البؤس**، رواية، دار مختارات، بيروت 1989. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001.
- **غفلة التراب**، رواية، دار مختارات، بيروت 1991. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001.
- **عزيزي السيّد كواباتا**، رواية، دار مختارات، بيروت 1995. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001. صدرت مترجمةً إلى ثماني لغات أوروبيّة هي: الأسبانيّة، الفرنسيّة، الايطاليّة، الألمانيّة، الإنكليزيّة، الهولنديّة، السويديّة، البولونيّة، في سلسلة "ذاكرة المتوسّط".
- **ناحية البراءة**، رواية، دار المسار، بيروت 1997. ترجمت إلى الإنكليزية.

الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2013.

– **ليرنيغ إنغلش**، رواية، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى 1998، الطبعة الثانية 1999، الطبعة الثالثة 2000. الطبعة الرابعة دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2005. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية. الطبعة الخامسة، دار الساقي، بيروت 2013.

– **تصطفل ميريل ستريب**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2001، الطبعة الثانية 2008. ترجمت إلى الفرنسيّة والإيطالية واليونانية والاسبانية. الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت 2013.

– **إنسي السيارة**، رواية، دار رياض الرّيس للكتب والنشر، بيروت 2002. الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2013. ترجمت إلى الفرنسية والبرتغالية.

– **معبد ينجح في بغداد**، رواية، دار رياض نجيب الرّيس للكتب والنشر، بيروت 2005. ترجمت إلى الفرنسية.

– **عودة الألماني إلى رشده**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعتان الأولى والثانية، 2006. ترجمت إلى الألمانية. الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت 2013.

– **اوكي مع السلامة**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2008. الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2013.

– **تبليط البحر**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2010.

– **وطني ليس على حق**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001 (محاضرة ألقيت في مقرّ الأمم المتحدة في جنيف بمناسبة سنة حوار الثقافات 2001).

في مقهى على البحر في بيروت كان لقاؤه الأول بها. لم يستطع أن يداري صدمته حين طلبت البيرة وأشعلت سيجارة بكلّ بساطة. صحيح أنه معجب بتحرّرها فهي تقود سيارة، وتلبس على الموضة، ولديها جهاز خليوي، ومولعة بالتلفزيون وبرامجه الجريئة. لكن تصرّفها هذا فاجأه. كيف تطلب بيرة في اللقاء الأول بينهما؟ طلب لنفسه مشروباً غازياً ليُشعرها بفداحة ما اقترفت، فما كان منها إلا أن طلبت زجاجة بيرة ثانية بعدما وضع النادل البيرة أمامه.

بعد الزواج تبدأ المعاناة الحقيقية للزوج عبر شكوكه المتعاظمة، فزوجته تنفر بشدّة كلما اقترب منها، وتحاول التهرّب من النوم معه والمبيتَ عند أهلها. وما زاد في شكوكه رغبتُها الدائمة والمعلنة في تعلّم اللغة الفرنسيّة. لقد تناهى إليه يوماً أنها كانت على علاقة بشاب فرنسي، لكنّه لم يكن يملك الجرأة ليسألها، لماذا تهتمّ بمعرفة كلمات بذيئة صادمة بالفرنسية؟

رشيد الضعيف كاتب وروائي لبناني. صدر له عن دار الساقي «أوكي مع السلامة»، «عودة الألماني إلى رشده»، «إنسي السيارة»، «ليرننغ إنغلش»، «ناحية البراءة».



DAR AL SAQI

دار الساقي

ISBN 978-1-85516-968-5

